الفصل الثالث

النثر المسجوع الموزون ـ القرآن ـ النتائج الثقافية للظاهرة القرآنية

يجدر بنا أن نتخلى عن عادة مستعارة من تواريخ أدبية أخرى . فان سكان المجال العربي ـــ كما حددنا آنفا ـــ عرفوا، دون ريب ، نظاما ايقاعيا تعبيريا سبق في ظهوره النثر الأدبي . ولم يكن هذا الشكل الجمالي هو الشعر العروضي ولكنه نثر إيقاعي ذو فواصل مسجّعة ، ونجد أنفسنا مدفوعين، ممسكا بملاحظة دقيقة لطبيعة الأشياء، الى عدم بدء هذا العرض بمجموعة من الفصول عن الشعر .

ولمة أسباب أخرى ذات صبغة منهجية، فقد شهدنا كيف وصلت الينا في ظروف تسودها المصادفة والقلق، معطيات الأخبار والنصوص الشعرية . إن دراسة هذه من الداخل، والبحث الذي دار حول قيمتها الايحائية أظهرا لنا في وقت مبكر الى أي حد تبقى مشكلة تاريخها دون حل نهائي . فما الفائدة إذن من الاصرار، تبعا لذلك، على اعطاء انطباع مفاده أنه من الممكن تثبيت العهود وتحديدها في دراسة الشعر العربي في العصر القديم ؟ .

أليس من صواب المنهج طرح المشكلة بتعابير جديدة ؟ ففي أوائل القرن السابع الميلادي، وعلى وجه الدقة حوالي سنة 612 إلى 632 هزت دعوة محمد ﷺ، جميع البنى الاجتماعية والسياسية والفكرية السائدة في العالم العربي، وقذفت بها إلى الحضيض، وقد بقي من أثر هذه الدعوة كتاب مقدس تأريخه ـــ بخلاف الشعر المسمى بالجاهلي ـــ ذو دقة مطلقة، ويمكن قرن هذا الصرح الهائل في اللغة العربية بذلك الشعر الموزون المقفى الذي يصعد منشؤه إلى ماض سحيق من التعبير الجمالي .

ان لدراسة القرآن، بوصفه صرحا أدبيًا، مكانتها في تخطيط القضايا التي طرحها النثر المسجوع. وليس القرآن الكتاب الأول، والأكثر روعة في الأدب العربي فحسب ، بل يُعتبر ظهوره أيضا حادثا رئيسيا في تاريخ الافكار، ففي جميع الميادين يبرز للعيان أثر ما نسميه بالواقعة القرآنية . ان الشعر وحده يشكل كتلة مقاومة، غير أن الشعر أيضا اصابه على مر الزمن الأذى على الأقل في ظاهره ان لم يكن في روحه، فان التغييرات التي نلحظها فيه هي في الحقيقة مرتبطة بتعديلات المناخ الاجتماعي والفكري أكثر منها بالقرآن ذاته، ولولا القرآن لغدا ترابط الأسباب غير قابل للتفسير . وهكذا فليس من الممكن توضيح دراسة الشعر في منحناه التطوري، انطلاقا من منشأ، كل شيء فيه مدعاة للشك، إلا بعد أن نقيم وزنا للواقعة القرآنية ونتائجها .

ويجدر بنا تقديم الشعر الجاهلي من زاوية تبعيته للقرآن وعلى ضوئه .

١ ـــ النثر المسجوع والايقاعي حتى ظهور القرآن :

تعريف : كان للعرب، منذ زمن قديم جداً، نثر مسجوع، موقّع، ذو صلات وثيقة بالسحر . وقد تكون هذه الطريقة التعبيرية ـــ كما يرى بعضهم ـــ نقطة انطلاق الشعر العروضي والنظمي، وعلى كل حال فلم يكن تعايش هذين النوعين موضع شك، على ما يظهر، عند القرن السادس الميلادي، فثمة علائم عديدة تحملنا على التفكير بأن هذا النوع من النثر كوّن، منذئذٍ ، الشكل غير المألوف، والجمالي لا شعورياً، للفكر في المجال العربي .

ويقصد المؤلفون العرب المسلمون من كلمة « سَجْع » نوعا من النثر يمتاز في آن واحد من النثر الحر، ومن الشعر العروضي الذي يتميز بدوره بطابع أساسي نعالجه فيما بعد عند كلامنا عن الشعر .

ويتصف هذا النثر باستعمال وحدات ايقاعية، قصيرة اجمالا، تتراوح بين أربعة وثمانية أو عشرة مقاطع لفظيةSyllabes أو أكثر أحيانًا، تنتهي بفاصلة . وتتجمع هذه الوحدات الايقاعية في صيغ ذات سجعة مماثلة، فكل وحدة ايقاعية في هذه المجموعات لا تحوي بالضرورة العدد ذاته في المقاطع اللفظية، وخلاصة القول فان العنصر الأساسي يتالف من الفاصلة المسجعة . ونستطيع ـــ على وجه التقريب ـــ ترجمة كلمة سجع بالنثر المسجوع الايقاعي. ولا ريب في أن بنية العربية الحرفية قد ساعدت على نشوء هذا النثر وتوسعه ، فان هذه البنية تحتوي على موضوعات تشكلية ذات ابنية مقطعية وايقاعية مماثلة، أو متجاورة، تزود المرتجل، بوفرة ودون عناء بالفواصل المسجّعة القوية البارزة . وهكذا فان صيغة فِعَال تشترك مع الأسماء في المفرد مثل كِتَاب وعِتاب ، أو مع أسماء في الجمع مثل كلاب كما أن صيغة حمراء وكبراء تنتهي في أواخرها بوقفةٍ مماثلة . ومن هنا نخمن جميع الموارد المكتشفة في هذه الخاصية اللغوية من قبل أشخاص مولعين بالرنين اللفظي .

استعمال السجع في اواخر القرن السادس ومنحاه المحتمل :

ومن الممكن أن يصعد السجع الى أكثر الآثار الأدبية عند العرب ايغالا في القدم، وبالتالي الى ماض أكثر غموضًا، ولكن الآثار النثرية المسجوعة لا تثبت لسوء الحظ ، في هذا المضمار، أمام دراسة جدية، وفي الواقع فهي منحولة، لا تكاد تستحضر مؤلفات صحيحة اختفت الى غير رجعة . واحتفظ لنا بعينات من هذه المنحولات، مؤلفون، يشك في أمانتهم أحيانًا، مثل ابن اسحاق، أو مؤلفون متاخرون أمثال الجاحظ والمسعودي وغيرهما من الذين استندوا الى أحاديث من الدرجة الثالثة أو الرابعة . وفي الحقيقة فان القرآن يقدم لنا في بعض أجزائه ، وبأسلوبه ملامح تستطيع جا نعد أقدم نتاج مسجوع، على أنه بلغ من اختلاف هذا الكتاب المقدس، ومن عدة نواح، مع ما يجب أن يكون عليه النثر

المسجوع القديم، حداً جعلنا نحجم عن الانتفاع بشواهده الى أبعد من نقطة محدودة .

وخلاصة القول فليس في الامكان، بحكم الوثائق التي في حوزتنا، سوى استحضار ماضٍ غابر .

ويؤلف السجع في القرن السادس أداة تعبيرية غير معتادة، يسيطر عليه نزوع فني أو طموح الى غاية فيها تقوية الذاكرة، كما أنه في الوقت ذاته أداة ارتجال، ويبدو قبل كل شيء أن السجع مرتبط بعدد من الطقوس المشربة بالسحر، ومعتقدات الجدود ، وعلى ضوء بعض هذه الاعتبارات أو جميعها، فاننا واجدون لنثر المسجوع أو الايقاعي في الأمثال والأقوال السائرة [1] وفي خطب التنفير، مقطعًا الجمل فيها، كما يظهر النثر المسجوع في الصيغ التي ترتلها المجموعات في اوائل شعائر الحج في مكة، وعمد الرسول ﷺ ، نفسه الى استعمال هذه الصيغ المسجوعة [2] وهي ، على ما يبدو، مستعملة في المراثي والصلوات الفردية [3]، ولعل النساء استعملنها في مراثيهن في مواكب الجنائز، كما أن المحاربين استعملوها، على ما يظهر، في الابتهالات المثقلة بالقوى السحرية والتي كانوا يجأرون

(1) انظر المثل عن حج العمرة في صحيح البخاري (القاهرة 1331) 29/4 مع اختلاف الروايات 56/5، وانظر ايضاً المثل عن واجبات البدوي تجاه الضيف في العقد الفريد 105/1، وانظر مثلاً آخر ورد في شكل حديث نبوي العقد الفريد 118/1 .

(2) انظر مقالة ويتسنك **Wensink** في دائرة المعارف الاسلامية مادة : تلبية 673 وراجع كتاب ديمونبين : «اسهام في دراسة الحج الى مكة» .
Contribution à l'étude du Pélerinage à la Mecque Paris 1923 باريس 1923 ص 179 وما بعدها . إن الأسباب متوفرة لدينا للاعتقاد بأن الاسلام، هنا ايضاً، اتخذ شعائر وثنية، ولكن ليس ثمة ثقة مطلقة في صيغ من هذا النوع اوردها ابن الكلبي في كتاب « الأصنام » (القاهرة 1342/1924) ص 7 وقد كانت رائجة في اوساط بعض القبائل .

(3) هذا ناشيء عن تحريم هذا الشعار الذي ورد على لسان ابن عباس راجع : صحيح البخاري طبعة جونبيول **Junyboll** (ليون 1908) 194/4 وفي طبعة القاهرة 720/4 في منتصف الصفحة، وفي ترجمة المستشرقة هودا **Houdas** للصحيح 349/4 الكتاب 80 باب المراثي .

بها قبل الالتحام [4]، ولكن السجع كان يؤلف على الأخص، أداة طبيعية تعبيرية [5] عند العرافين أو الكُهان .

ويمكننا بفضل النوادر العديدة التي وصلتنا عن هؤلاء القوم، نم بفضل المقارنات التي نجدها في مكان آخر من المحيط السامي، أن نستحضر الجو الذي كانوا يُسمعون فيه تنبؤاتهم [6].

ان حالة الرئي **Voyant** مشتركة بين الرجال والنساء، فالكاهن جزء من مجلس القبيلة، وقد يكون أحيانًا رئيسها، شأن الكاهن المشهور طلَيحة [7] خصم النبي محمد ﷺ، قبل إعلانه اسلامه [8] وبتأثير نفوذه الذي تضفيه عليه صفة الكهانة يزاول الكاهن سلطانه خارج إطار جماعته فيستحق عندئذ لقب «حكم» او قاض .

أما الكاهنات فيستطعن ، استثنائيا، قيادة قبائلهن، وفي مقدورنا أن نقرر، من خلال الأخبار التي وصلتنا عنهن بأنهن ، على الخصوص، عرافات مثل العرافة اليمنية [9]، وليس هؤلاء الأشخاص، رجالًا أو نساء، بِسَحَرة، كما أنهم ليسوا بمُشعوذين [10] ، وليسوا بكهَّان أو كاهنات يقيمون شعائرهم في معبد، فان جلّ

(4) الجاحظ : البيان والتبيين 280/1 المنافرة بين مديني وبدوي زمن الرسول محمد «ﷺ» .

(5) كان الكاهن ينطق بنبوءاته شعراً كما سترى فيما بعد .

(6) إن هذا الدور وهذا الموقف معروفان لدينا بصورة عامة، وقد اصبح بعض الرئيين في نظر الأجيال المقبلة، على اثر اللعنة التي صبها عليهم الاسلام، كذّابين كطليحة او أشخاص غيره شبه اسطوريين كشق وعمه سطيح، راجع كتاب البخلاء للجاحظ 73 وفي طبعة فان فلوتن **Van vloten** 54، الذي قرن الى اسم الكاهن صفة « محتال » .

(7) هو طليحة بن خويلد الأسدي احد المتنبئين وكان يقال له «طليحة الكذاب» .

(8) راجع عن طليحة مقالة فاكا **Vacca** في دائرة المعارف الاسلامية 874/40 وراجع عن دوره بوصفه رئيساً ورئياً وخطيباً كتاب الحيوان للجاحظ 280/10 .

(9) راجع عن دور هذه الكاهنة التي مثلت عند أعراب سبأ في مأرب دوراً يشبه دور الآلهة اليونانية **Cassandre**، مروج الذهب للمسعودي 3/ 379 .

(10) راجع مقال فيشر **Fischer** في دائرة المعارف الاسلامية مادة : «كاهن» 666 .

فعالياتهم منتشرة وسط قبائلهم التي يقاسمون اهلها عيشهم، ومصائرهم في السراء والضراء، على أنهم جماعة مُلهمون، ففي أثناء الأزمات الوَجْدية ينقلون من جديد، بلغة بشرية، التنبؤات التي تلقوها من جنّي مألوف [11]، وتدل النوادر التي نقلها المؤلفون المسلمون أن هؤلاء الرئيين يتنبأون بالمستقبل، ويتوقعون حدوث الكوارث، ويفسرون الأحلام، ويجيبون أحيانًا عن اسئلة طرحت عليهم بشأن حيوان شارد، أو طريق سلكه أحد القتلة، فالكاهن إذن يتنبأ في جو يسوده الحذر والاحترام، لأن كلامه مثقل بالاحتفالية والتأثير الخفي والتهديد، وليس أدعى إلى الخطأ من اعتبار كلامه تمتمات مهلوس أو شيطاني، وبالتالي مزور، ومع ذلك تعطي العشرات من التنبؤات التي نسبها المؤلفون الاسلاميون الى هؤلاء الرئيين القدامى، انطباعا عن ابداعات ساذجة هوجاء .

ان فرضية «الصنع» ذي المنشأ الشعبي لمماثلة للحقيقة جداً.ولا ريب في أنه ينبغي التفكير بتحريم الاسلام المنتصر نوعا من الفعالية الأدبية ولدت كلها في أحضان الوثنية . ففي هذه الحالة تفرض عملية المحاكاة نفسها علينا في أغلب الأحيان، ومن الجائز التساؤل عما اذا كانت هذه التنبؤات المنحولة الهوجاء لا تعكس، على خلاف ما نظن، تنبؤات الكهان الموجهة الى قبائلهم بلغة بدائية قاصرة .

ويرى المؤرخ الطبري أن المجال العربي عرف الرئيين في منتصف القرن الثامن للميلاد أو الثاني للهجرة [12] ، ومن الممكن جدّا أن تكون التنبؤات المصنوعة الموضوعة على ألسنة الكهان الجاهليين التي ظهرت تحمل تاريخ القرن الثاني للهجرة والثامن للميلاد، اعادة مباشرة لهذا النتاج، ولا ريب في أن هذا النتاج

(11) عرف هذا الجني باسماء مختلفة وخاصة بالاسم المتميز الرئي . راجع : الحيوان للجاحظ 203/4، 205، الأغاني : 124/4، الأمالي للقالي : 134/1 .

(12) راجع : الطبري 21/3 «حوادث سنة 132 هـ 749 م» كان استعمال النثر المسجوع الموقع في التنبؤات موجوداً حتى العصر الحالي . انظر موسيل « عرب الرولة » 403 وفيه اشار الى عرافين يستعملون في تعزيماتهم سجعاً حقيقياً .

امتداد لاستعمال سابق بحيث يحملنا على تجويز الاستناد الى تلك «المصنوعات»، لكي تتولد عندنا فكرة عن السجع في القرن السادس للميلاد وأوائل القرن الذي يليه . ويبدو أن ثمة نصيّن يستحضران أحسن من سواهما الآثار الباقية، وهما نصّان شعريان الأول في الرثاء وهو [13] :

وآبناه
وابنَ اللّيْل
ليس بالزُمَيْل
رَقُود باللَّيْل
شَرُوب بالكَيْل
ووادٍ ذي حَوْل
اعجزتَ باللَّيْل
بِرِجْلٍ كالطَّوْل

أما القطعة الثانية فهي تنبؤات رئي منسوبةٌ إلى كاهن في أواسط الجزيرة العربية [14] :

« من الملك الأشهب، الغلّابُ غيرُ المغلَّب، في الإبل كأنها الرّبرب، لا يَعْلَقُ رأسه الصَخب [15]، هذا دمه يَشْخَب، وهذا غداً أوّل من يُسلب » .

ولهذين النصيّن صلة مشتركة هي سذاجة الأسلوب، وانبتار الحركة، وجفاف الخيال . أما القطعة الثانية فتتصف على كل حال بمفردات أكثر ندرة، وأكثر غموضًا تضفي على التعبير خفاءه وقوته السّحرية، وبالاضافة الى الالتباس فاننا نلقى هذه الظاهرة في «المنحولات» المنسوبة الى الكهان، وقد تبتدىء هذه التنبؤات عند هؤلاء الرَّئيين بصيغ تقديسية :

(13) ديوان الهُذَليين 47/5 والقطعة منسوبة الى أم الشاعر الجاهلي تأبط شراً .

(14) هو عرفان بن ربيعة الأسدي، الاغاني 84/9 .

(15) في رواية : يقلق . وفي روايةأخرى : يعلق .

« والنور والظلام، والأرض والسماء، ان الشجر لتالف، وليعودنّ الماء كما كان في الدهر السالف » .[16]

ولا ريب إطلاقاً في أن هذه الصيغ من رواسب الإحيائية، وحسبها أن تبرهن وحدها على مقدار علاقة النثر المسجوع والايقاعي بالسحر . ونرى في القطعتين السالفتين، أن الوحدات الايقاعية قصيرة . وتنتهي بفاصلة ذات سجعة أو توازن متماثل . ولعلنا واجدون في وقت مبكر في اواخر القرن السادس مؤلفات مسجوعة ذات اسجاع متعددة [17]، إذ لم تعد هذه الظاهرة في الربع الأول من العصر التالي مجرد فرضية، فقد أشار القرآن الكريم إلى أي نجاح يؤدّي هذا الاستعمال، فهل يعني هذا أن ثمة ثورة ؟ ذلك ممكن جداً، ولا يسعنا مع ذلك أن نثق بالدلالات التي تحتويها «المنحولات» التي تحملنا على الافتراض بأن النثر الايقاعي ذا الاسجاع المتعددة كان مستعملاً في اوائل القرن السابع الميلادي في مؤلفات ذات اتساع معين، وبخاصة في المنافرات، وعلاوة على ذلك فاذا كان ثمة ثورة أو لا فان الواقعة التي يجدر الاحتفاظ بها هي قدرة القرآن على تأريخ فجر عهد جديد للسجع، فقد كان في مقدور الأجيال المعاصرة لمحمد عليه الصلاة والسلام أن تعي المصادر غير المتناهية لشكل يتوافق تماماً وعبقرية اللغة العربية .

ولئن لم يكن وقع شيء من هذا القبيل، ولو أننا عوضاً عن التفتح، لحظنا على العكس، مباشرة بعد القرآن، احجاماً عن استعمال السجع فماذا عساه يكون نوع الظروف الداعية الى فقدان السجع اعتباره ؟ .

ان ثمة سببين لذلك، فمن جهة شكل هذا النثر كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بطقوس الكهان الى حد يحول دون اعتباره أداة « تعبيرية خاصة » بالوثنية [18]،

(16) مروج الذهب للمسعودي 381/3 ، وثمة أمثلة أخرى في كتاب «الصناعتين» للعسكري 250 السطر الرابع وما بعده . «وتاريخ القرآن» للمستشرقين نولدكه واشكوالي 75/1 .

(17) انظر المؤلفات المصنوعة في كتاب «الصناعتين» 250 والأمالي للقالي 134/1 .

(18) يعكس هذا الموقف حديث يستشهد به كثيراً، فقد جاء في صحيح البخاري على هامش السيوطي بان الرسول عليه الصلاة والسلام قال لرجل حكم عليه بالدية فقال : يا رسول الله ! أأدي من لا

ومن جهة أخرى فان خصوم محمد عليه الصلاة والسلام أصرّوا على الخلط بين السجع القرآني وسجع الرَّئيين، وعندما اعتقد الناس، بعد انتصار الاسلام أن الوحي الذي نزل على محمد عليه الصلاة والسلام يختلف جوهرياً عن وحي الكهان أدى ذلك الى اعتبار سجع الكهان شيطاني المنشأ، ولهذين السببين حلت اللعنة على النثر المسجوع والايقاعي .

وهكذا ظل السجع في بعض الأوساط المتزمتة، طوال قرنين تقريباً، مدموغاً بهذه الشبهة .

ويحق لنا الظن، بالرغم من هذا الاهمال الذي اصيب به السجع، بأن هذا الشكل الأسلوبي أبعد من أن يكون لقي الهجران التام في الأوساط الشعبية، وفي الحق فان الآثار الباقية الدالة على استعمال السجع اثناء النصف الثاني من القرن الأول للهجرة والسابع للميلاد قليلة [19]، ومع ذلك فثمة علائم في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة والتاسع للميلاد تشير سواء الى تراجع في الرأي العام أو الى محاولة ماكرة لإعادة هذا الشكل النثري المجرد من اعتباره الى سابق مكانه، وعند ذلك يمكننا، حقاً، هنا وهناك تسجيل بعض الظواهر الرامية الى تسويغ استعماله، فقد أشاروا مثلاً في حديث شريف الى أن محمدا عليه الصلاة والسلام خطب في جماعة المسلمين عند وصوله الى المدينة سنة 622 خطبة مسجوعة ايقاعية [20] .

شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، ومثل ذلك يطل، فقال الرسول : « أسجعاً كسجع الكهان !» وورد الحديث في العقد الفريد « طبعة القاهرة 1354 » 87/1، وفي البيان والتبيين للجاحظ : فوقع النهي [اي عن الاسجاع] في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية، ولبقيتها في صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم 290/14 .

(19) جاء في البيان والتبيين للجاحظ 298/1 : ومن الأسجاع قول أيوب بن القرية وقد كان دعي للكلام واحتبس القول عليه، فقال « قد طال السهر، وسقط القمر، واشتد المطر، فماذا ينتظر » . فأجابه فتى من عبد القيس فقال : « قد طال الارق، وسقط الشفق، وكثر اللثق، فلينطق من نطق ».
اللثق : الندى والوحل .

(20) ورد هذا الخبر في كتاب « الصناعتين » للعسكري 251 مع سند يصعد الى عبد الله بن سلام .

وكان من الصعب أن نضيف الى أضبارة هذه القضية حجة، هي في آن واحد أكثر شبهة وأكثر ايحاء . على أنه يجدر بنا انتظار مجيء الجاحظ (المتوفى حوالي 250 هـ/ 864 م) لكي نشهد من جديد استعمال هذا الكاتب النثر المسجوع ولو بتحفظ، وفي الواقع فان السجع لم يسترد حظوته إلا في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة والتاسع للميلاد وذلك بعيدًا عن جزيرة العرب في الأوساط المثقفة في العراق والشام وفارس، ويظهر حينئذٍ هذا الشكل الأسلوبي على درجة من التحول حتى ليصعب جدا على الرئيين الجاهليين التعرف على نثرهم .

ب ــ محمد والقرآن:

تمهيدات : ــ لا مجال هنا لدراسة كتاب الاسلام المقدس في محتواه الديني ومن الضرورة، مقابل ذلك، أن نستخلص العناصر التي تجعل من هذه « الرسالة » صرحا من أكثر الصروح تمثيلًا لفكر التعبير الفني وأساليبه عند القائمين في المجال العربي في القرن السابع للميلاد .

ويجدر بنا لكي نفهم الواقعة الوحيدة الممثلة في القرآن في الحركة الفكرية والأدبية في هذا الجزء من العالم، أن نذكر بأن القرآن أكّد عند ظهوره أنه رسالة من الله أنزلت، بواسطة ملاك، على النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وتطلق هذه الرسالة الدينية على نفسها اسم « الوحي » او « الكتاب » تارة و « الذكر » أو « القرآن » تارة أخرى .

ولعله يبدو فريداً في نوعه ألّا نرى في كتاب ديني سوى أثر أدبي، ولكن القرآن ذاته يحملنا على النظر اليه كذلك فنحن واجدون فيه :

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ

ويجدر الاشارة أيضاً الى خبر فيه أن معاوية سمع الرسول عليه الصلاة والسّلام يقول السجع ف أحد ابتهالاته . راجع نسب قريش لمصعب (طبعة ليفي بروفنسال) طبعة القاهرة 264، وانظر أيضاً مسجوعة للرسول عليه السلام في العقد الفريد 1/286،288 .

مِن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ★ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودُهَا النَّاسُ والْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافرين (21) .

وأخذ المتكلمون فيما بعد، وانطلاقاً من هذا التصريح وتصريحين غيره، يجمعون في شكل نظرية كاملة ما اصطلح على تسميته « إعجاز » القرآن، حيث طرحت بصورة أكثر وضوحا الفكرة القائلة بأن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام الحقيقية والوحيدة هي ابلاغه الناس رسالةً ذاتَ روعة أدبية لا مثيل لها، فمن هو ذلك الرجل المكلف بالمهمة الثقيلة العبء وهي حمل النور الى عرب الحجاز في اوائل القرن السابع ؟ إن محمداً عليه الصلاة والسلام لا يبدو في القرآن إطلاقا، منعماً عليه بمواهب تنزهه عن الصفات الانسانية، فهو لا يستطيع في نظر معاصريه المشركين أن يفخر بالاستغناء عن حاجات هي حاجاتهم، وهو يصرّح بفخر أنه لم يكن سوى مخلوق هالك .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ (22).

وهو لم يتلق أي قدرة على صنع المعجزات، ولكنه انتخب ليكون منذراً ومبشراً للكافرين . ان نجاح رسالته مربوط إذن بقيمتها الاحيائية وشكلها المنقطع النظير .

ولم يكن محمد عليه الصلاة والسلام، رغم ذلك، صاحب بيان ولا شاعراً، فان الاخبار التي روت سيرته لم تحسن الاحتفاظ بذكرى مفاخراته الشخصية، وثمة عوامل تحملنا على الشك فيما اذا كان عرف استعمال السجع، أو أنه تلقى من السماء فن ارتجال الشعر، وعندما قال عنه المكّيون المشركون إنه شاعر أو حين عرّضوا بأن مصدر الوحي جنّي معروف . أزال الله عنه هذه التهمة :

وما علَّمناهُ الشِّعْرَ وما يَنْبغي له ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وقرآن مُبين، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ويحق القولُ على الكافرين (23).

(21) القرآن الكريم سورة البقرة 2 ــ 23، 24 .
(22) القرآن الكريم سورة الكهف 18 ــ 110 .
(23) القرآن الكريم سورة يس 36 ــ 69، 70 .

وهكذا يطرح هذا الوحي البالغ جماله حد الإعجاز، الواثق بحمل الناس بقوة بيانه على الهداية، بصفته ظاهرة لا علاقة لها بالفصاحة ولا الشعر .

ولنزد على ذلك، كما هو منتظر، أنه يعلن عن عدم وجود روابط تشدّه الى الامكانات البشرية، فثمة هوة بين جوهر هذه الرسالة الإلهي، وقدرة المخلوق الذي أوكلت اليه ومداه ، ونحن هنا تجاه ظاهرة تعقّد التحليل، وفي الحق فليس من مقارنة تعقد بين نفسية محمد عليه الصلاة والسلام ونفسية الشاعر، فان هذا يظل، مهما كانت نوعية تكوينه الفني، وظروف استلهامه الطارئة سيّد أداته وحاضراً تجاه وعيه بالقدر الذي يخضع فيه للتغير، أما محمد عليه الصلاة والسلام فعلى عكس ذلك، فهو أنموذج « للملهم » فالكلام الذي يتلقاه انبثاق خارج عن شخصه، فهو يهبط عليه وسط حالات وَجْدية وصف القرآن بعضها، ومن هنا طرحت قضية العلاقات التي تجمع بين الدفّق الذي يؤذن بحدوث الحالة الوجدية وبين التصورات المختلفة، سمعية كانت أو بصرية، التي صاحبت عند محمد عليه الصلاة والسلام نزول الوحي، ونجد انفسنا عندئذ مدفوعين الى التساؤل — دون أن نصل الى جواب حاسم — عن الشروط التي تم فيها الانتقال (نفسياً) من هذه التصورات الى صيغ منطقية مفهومة بلسان انساني ألا هو لسان معاصري الملهم .

وتؤلف نصوص القرآن — ويجدر ألا ننسى هذا — مواعظ بكل ما في هذه الكلمة من معنى بسيط، وعلى هذا الأساس فان هذه النصوص موجهة الى مستمعين يحاول محمد عليه الصلاة والسلام التأثير عليهم، أو اقناعهم، أو دحض أقوالهم وكانت هذه المواعظ، سواء أكانت تهدف الى حالات عامة، أم حالات خاصة، وسواء أكانت ناشئة عن أسباب بعيدة أم آنية، وسواء أثارتها بعنف وقائع غير منتظرة، أقول : كانت هذه المواعظ تختلف في أشكالها بقدر اختلافها في محتواها طوال دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولم يشعر معاصرو محمد عليه الصلاة والسلام ولا المسلمون في أي زمن من الأزمان بالحرج من جراء الصفة العرضية للرسالة القرآنية، فقد اكتشفوا — على العكس — في هذه الظاهرة برهاناً اضافيا على الحكمة الآلهية التي كيفت تعاليم

سيد العالمين وحاجات البشر، ومن جهة ثانية فان التفاسير الحريصة، في أي سورة، من سور القرآن على اكتشاف اشارات تلميحية من شأنها تأكيد عناصر سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام كما تشكلت بعد حوالي قرن، حاولت أن تعيد تصنيف النصوص التي وردت فيها تلك التلميحات تبعاً لتسلسل زمني خاضع للمناقشة يبدو أحياناً اعتباطياً .

وينبغي ألا يخملنا فشل هذه المحاولات على العدول عن الربط بين الوحي الذي نزل على محمد عليه الصلاة والسلام ومراحل دعوته الاسلامية .

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار النقص وعدم التسلسل الحاصلين في سيرة نبي المسلمين [24] أمكن أن نعتبر في حكم المؤكد، تاريخياً، أن النبي عليه الصلاة والسلام قد دعي لأداء رسالته النبوية حوالي سنة 612 م على أقرب تقدير زمني، أي في الوقت الذي بلغ فيه سن النضج، وجرى القسم الأول من دعوته في مكة، وكان هدفه حمل مشركي مكة على الإيمان بنوع من التوحيد دعاه « الحنيفية » . وثمة بعض الآيات القرآنية تدعونا الى الظن بأن النبي الجديد قبل، في بداية الدعوة، مبدأ المصالحة مع خصومه، ثم عزم مع جماعة من المؤمنين لا يتجاوز عددهم مائة شخص على هجر مكة الى يثرب التي أطلق عليها منذئذ اسم « المدينة » .

وتؤرخ الهجرة التي حدثت سنة 622 م تحولًا تاماً في سيرة محمد عليه الصلاة والسلام ودعوته، فلم تعد حياته محاطة بالأساطير، فثمة تواريخ ووقائع تعرض أمام المؤرخ الذي يجد فيها صوًى تحدد مراحل سيرته، ولم يعد محمد عليه الصلاة

---

(24) من الصعب أكثر فأكثر قبول فكرة وجودنا في حالة استعداد لكتابة « حياة محمد » تؤلف كلًا متواصلًا . وفي الحق فان المصدرين اللذين في حوزتنا وهما القرآن والحديث لا يتيحان لنا كتابة هذه السيرة بالدقة التي يفرضها المنهج التاريخي .
راجع عن المصادر واستعمالها كتب كايتاني **Caetani** « الحوليات الاسلامية » (ميلانو 1905–1926) الجزء الأول . ومقالة ليفي ديلافيدا في دائرة المعارف الاسلامية مادة « سيرة » 458 وما بعدها . وكتاب بلاشير : « مشكلة محمد » الفصل الأول .

والسلام نبياً يبشر في الصحراء ، بل تحول الى زعيم ذي سلطة إلهية، يتلقى أوامره من السماء ويحكم باسم الله عز وجل، وقد زاد عدد أتباعه المكيين منذ سنة 622م كتلة من الأنصار المدنيين الذين انضم اليهم من جراء انتصار الاسلام جماعات من البدو كان إيمانهم دومًا موضع ارتياب :

قالتِ الأعرابُ آمنّا قُلْ لَمْ تُؤمِنُوا ولكن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يَلِتْكم من أعمالكم شيئاً إنَّ الله غفورٌ رحيم (25).

واتخذت شخصية محمد عليه الصلاة والسلام طوال السنين العشر التي انقضت منذ هجرته إلى المدينة حتى وفاته فيها، اعتباراً متزايدًا في نظر المؤمنين، فان الأحاديث والتعاليم والأعمال البسيطة والخطيرة في حياة الرسول قد لوحظت ودونت وحفظت وأصبحت موضع تأملات بوصفها أنماطًا يجدر اتباعها، وفيها النواة الأولى التي ستؤلف « الحديث » واصبحت المدينة في الوقت ذاته مركزاً سياسياً واستجاب الرسول، كما سنرى فيما بعد ــ لضرورات الحياة الزمنية مستقبلًا الشعراء المكلفين بالدعوة الى الاسلام، ووفود القبائل، عاقداً الصلات الدبلوماسية مع رؤسائهم، وبعد محاولات ، مكشوفة تقريباً فتح مكة سنة 630 م فتمت له بذلك الهيمنة على الحجاز في الوقت الذي امتد سلطانه على جزء كبير من المجال العربي .

وبعد أن أدى الرسول الكريم حجته الأخيرة عاد الى المدينة حيث لحق بالرفيق الأعلى سنة 632 م .

إن الصلات المتعددة بين توسع هذه الرسالة وبين الصور المجموعة في القرآن بوصفه نصاً موحى به، لا تظهر البتة في القراءة الأولى، فان هذه على العكس، تترك في النفس انطباعًا بأن القرآن في نصه المعتمد الذي وصل الينا لا يتماشى

(25) القرآن الكريم سورة الحجرات 49 ــ 14 .

وتتابع الوقائع التاريخية، وهذا لا ينتج عن محتوى هذه الآيات التي تهمل التأريخ والتفصيلات الدقيقة والحكاية المروية في إطارها الظرفي فحسب، بل هي أيضاً وعلى الأغلب نتيجة المنهج المتبع عند تدوين النص ونتيجة عدم الاهتمام في تصنيف الآيات الموحى بها الى نبي الاسلام .

تكوين النص القرآني :

إن النصّ القرآني، في حاضره، أي النص المنتشر المعتقد لدى المسلمين «Vulgate» هو نتيجة إعداد بدأ في حياة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم استمر ذلك الاعداد بعد وفاته عليه الصلاة والسلام على يد الخلفاء ثم الفقهاء والمفسّرين طوال قرنين تقريباً . وإن الظروف التي اكتنفت تكوين النص القرآني هي غاية في الغرابة، وعلى الرغم من الرسالة التي بلّغها النبي عليه الصلاة والسلام المسلمين والتي تتخذ ذاتها صفة الوحي ذي المصدر الآلهي ، فهي لم تحظَ في كلها المتكامل بالمصادقة على أنها كتاب مقدس، في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام (26) . ان هذا كلّه يجيز لنا الافتراض بأن النص القرآني ظل في أغلبيته ، بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، مُودعًا في حافظات المؤمنين وان ما تشكل من مجموعات جزئية مردها الى حماسة بعض المؤمنين . ان هذه المجموعات التي دونت بطريقة كتابية بدائية جدّاً لا يمكن قراءتها بصورة مضبوطة الا بقدر استظهار القارىء المسبق لهذا النص . وقد قام زيد بن ثابت أحد كتّاب الوحي بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام، بناء على مبادرة الخليفة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) بتنقيح المجموعات الجزئية المختلفة الموجودة آنذاك، وضم اليها اجزاء من الوحي محفوظة في صدور المسلمين، ولم يتخذ هذا النص المجموع مع ذلك أي صفة رسمية، على أنه نقل بعد وفاة الخليفة أبي بكر الصديق الى خلفه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ثم الى ابنته أم المؤمنين حَفصة بنت عمر، ولم يزحم هذا النص عند ظهوره اطلاقاً سواه من النصوص التي جمعها في الوقت ذاته المقربون من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو سواهم من الأعيان من حاشيته أمثال علي

(26) بلاشير : مقدمة ترجمة القرآن 18 وما بعدها .

ابن أبي طالب (رضي الله عنه) وأبي بن كعب وابن مسعود وغيرهم. وقد جلب الأنظار الى هذه الظاهرة قرار حمل على اتخاذه الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بين سنة 643 و655 [27] وهو الذي أمر بجمع جديد يكون بمثابة مصحف معتمد، وتقول الروايات المقبولة عامة إن هذا المصحف الأخير يرتكز على الصحف التي كانت في حوزة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) والتي انتقلت من بعده الى أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب . وكان الباعث على قرار عثمان بن عفان (رضي الله عنه) اختلاف القراءات التي سمعت في الكوفة بين الحفظة المجاهدين، واذا ما ضربنا صفحاً عن التناقضات الجزئية بين المعطيات المروية بدا من الثابت أن الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ألف لجنة كان من أعضائها كاتب الوحي زيد بن ثابت [28] صاحب الصحف التي كان يمتلكها أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فأمر عثمان باتخاذ الصحف التي كانت عند حفصة بنت عمر أساساً لهذا المصحف ولكنه أمر أيضاً بالاستعانة بتجميع الشهادات المقولة أو المكتوبة التي من شأنها البلوغ الى تشكيل مجموعة كاملة على قدر الامكان، للوحي «Corpus» . وهنا تثب للذهن خاطرات عن الاختلافات التي نقلتها المعطيات المروية المتعلقة بتشكيل هذه اللجنة من جهة وعن النيات التي املت اختيار أعضائها من جهة أخرى .

ما هي أهداف هذه اللجنة ؟ لا ريب في أن نيات اصحابها ونية الخليفة عثمان ابن عفان (رضي الله عنه) لم تكن إلا ممتازة، وكان المأمول من تشكيل مصحف معتمد، القضاء على اختلاف القراءات المنتشرة بين جماعات المسلمين بحكم وجود نصوص متعددة، لا يحمل أي منها طابعاً رسمياً . واذا ما تبنى عثمان بن عفان صحف أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) كما تقول الروايات التي وصلت الينا

(27) راجع عن قيمة المعطيات التقليدية المتعلقة بتأليف المصحف العثماني : بلاشير : مقدمة ترجمة القرآن 52 وما بعدها .

(28) كانت اللجنة مؤلفة من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام (المترجم) .

فلم يكن ذلك بدافع من مصادفة بل حصيلة حساب . إذ كان عليه واعضاء اللجنة أن يشعروا بأن جمعاً للمصحف يشبه ذلك الذي قام به أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) والذي سبق ان وافق عليه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سيمكن من القضاء على أي جمع قامت به مبادرات اكثر تواضعاً، ويضاف الى هذا الاعتبار اعتبار آخر أكثر خطورة في نتائجه، ففي خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) اخذت معارضة علي بن أبي طالب(رضي الله عنه) في التشكل، فقد كان لهذا الفريق صحفه القرآنية التي جمعها علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بنفسه، ولكي يقطعوا الطريق على الصحف المذكورة صار بوسع عثمان بن عفان (رضي الله عنه) واللجنة التي الفت بأمره بصفتها تمثل ورثة كبار السلف جمع صحف هؤلاء اعتمادا على تلك التي كانت في حوزة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) .

ولا بد بعد العودة الى الوراء من الاعتراف بفضل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) الذي استطاع الفوز باجماع أكثرية المسلمين على نص أدى بفضل الظروف المواتية، الى تأليف مصحف الاسلام .

وبقي، بعد أن تم هذا الجمع، أن يُفرض مصحف معتمد على جماعة المسلمين، واتخذ الخليفة عثمان (رضي الله عنه) بهذا الصدد اجرائين : أولهما إصداره أمراً باتلاف العسب واللخاف والاكتاف والصدور التي كتبت عليها في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقرات من المصحف . ويدل هذا الاجراء الصادر عن جرأة منقطعة المثيل، على أي حدّ بعيد بلغت الرغبة في نشر مصحف يقدّم بكتابة قطعية لا مجال فيها للاعتراض، وثانيهما : أن الخليفة عثمان (رضي الله عنه) أمر بنقل أربع أو خمس من النسخ من المخطوطة الأساسية الناتجة عن أعمال اللجنة وأرسلها من المدينة الى حواضر المملكة الاسلامية الاربع وهي : مكة والبصرة والكوفة ودمشق حيث اتخذت اساساً لنسخ أخرى .

وقد كان في الامكان ، منطقياً، فرض اجراء ثالث ألا وهو إتلافِ المجموعات المعاصرة لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ، فان مصحف أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) أعيد الى مالكته أم المؤمنين حفصة بنت عمر من جهة، ومنع تداول مصحف ابن مسعود من جهة أخرى .

وعلى كل حال فان الفضل يعود الى الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لاسهامه قبل سنة 655 م في ابعاد المخاطر الناشئة عن وجود نسخ عديدة من القرآن، واليه وحده يدين المسلمون بفضل تثبيت نص كتابهم المنزل، على مدى الأجيال القادمة .

حاضر القرآن وقضايا مرتبطة به :

ينقسم القرآن ، كما في المصحف العثماني، الى مائة واربع عشرة سورة، ويعود هذا التقسيم الى النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وكل سورة من تلك السور باستثناء عدد ضئيل جداً، كسورة يوسف مثلا ، هي في الحقيقة مجموع مؤلف من عدة آيات مُنزلة ، ويبدو أن هذا التلاصق، في أغلب الحالات، من عمل محمد عليه الصلاة والسلام، وتحتوي السورة أحياناً كثيرة، على آيات متعددة نزلت في أزمان مختلفة، ونجد في الواقع، أن الرسول عليه الصلاة والسلام، أضاف آية منزلة لاحقة الى أخرى سابقة لان الثانية تكمل الأولى ، أو تعدّلها ، أو تقدم محتوى مماثلًا لها، مثال ذلك الآية 226 وما بعدها من سورة البقرة والآية 237 من السورة ذاتها التي تعالج قضية طلاق النساء . فان كل واحدة من هذه الآيات في داخل السور مؤلفة من وحدات إيقاعية، وقد شعر المسلمون في وقت مبكر بأن هذه الوحدات الايقاعية بوصفها عناصر لها قيمة الآيات المنفصلة ، ولم يتأكد أن هذا الشعور كان في الأصل، لاننا واجدون احياناً في المخطوطات القديمة وحدات ايقاعية مؤلفة من ثلاث أو أربع أو عشر [29]، وتظهر المائة والأربع عشرة سورة في المصحف العثماني بصورة اجمالية في ترتيب تناقصي **Decroissant** باستثناء سورة الفاتحة التي تحتوي على تسع آيات ، ولكنها تؤلف نوعاً من الرمز الإيماني **Credo** . ونجد هذا الترتيب في مصاحف غير معترف بها جزئياً كمصحف ابن مسعود فان الترتيب الزمني للآيات المنزلة غيّره محمد عليه الصلاة والسلام في داخل السور . ان السور التي وردت في مطلع القرآن اكثرها طولًا وهي التي نزلت في غالبيتها على النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة بين 622 م و 632 م ، وفي

(29) راجع عن الحالة الشكلية للمصحف : بلاشير : مقدمة ترجمة القرآن، 137 وما بعدها والمصادر .

مقابل ذلك فان السور الأخيرة من القرآن ، أي القصيرة، يرجع توقيت نزولها الى اوائل الدعوة أي بعد سنة 612 م تقريباً .

سورة العهد المكي الأول :

لنتصفح المصحف العثماني بدءاً من سورة الروم فنجد مجموعة من السور تتقاصر أكثر فأكثر كما هو منتظر، وفي مقدورنا أن نجد بينها أربعاً وسبعين سورة تشكل مجموعات تسود فيها « الطريقة » الأولى للدعوة القرآنية .

وثمة مجموعة، ولعلها أقدم النصوص في القرآن، تحتوي على ثمانية نصوص تتضمن نداء للتوبة والتطهر .

وتأتي بعد ذلك مجموعة ثانية مؤلفة من ثلاث وعشرين سورة ذات محتوى أكثر غنى، ونحن واجدون بصورة خاصة الدليل الذي ابداه أثيناغوراس [30] **Athénagore** في العالم المسيحي قبل ثلاثة قرون في أن امكانية الحياة داخل الارحام تبرهن على حقيقة البعث بعد الموت ، إذ ليس بعزيز على الله أن يبعث البشر الذين خلقهم .

واذا ما حاولنا في هذه المجموعة البحث عن الموضوع الرئيسي وجدناه في الأقوال الموسعة التي تدعو الى الايمان بالأخرويات (كالبعث والحساب) وهي في هذه السور عديدة وواسعة ومن اليسير علينا أن نفرق بين العناصر المختلفة التي تقع في دائرة تصوير يوم القيامة وبعث الأموات ومصيرهم الى الجنة او النار . ان هذه العناصر، في الواقع، تترابط وتتكرر وتتداخل :

إنَّ يَوْمَ الفَصْلِ كَانَا مِيقَاتا ★ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ فَتَأْتُونَ أفواجا ★ وَفُتِحَتِ

(30) فيلسوف يوناني عاش في القرن الثاني بعد الميلاد، ولد في أثينا وكان أحد مريدي الفيلسوف أفلاطون وقام بنشر آرائه في مسقط رأسه، ثم اعتنق المسيحية محاولا التوفيق بين تعاليم المسيح وفلسفة استاذه القديم أفلاطون ومن مؤلفاته ، دفاع عن المسيحية الذي وجهه الى الامبراطور ماركوس اوريليوس و«بعث الموتى» (المترجم) .

السَّماءُ فَكانَتْ أبْوابا * وَسُيِّرَتِ الجِبالُ فَكانَتْ سَرابا * إنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصادا * للطَّاغِينَ مَآبا * لابِثِينَ فِيهَا أحْقابا * لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرابا * إلَّا حَميماً وَغَسّاقا * جَزاءً وِفاقا * إنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِسابا * وَكَذَّبُوا بآياتِنا كِذَّابا * وَكُلَّ شيءٍ أحْصَيْناهُ كِتابا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إلَّا عَذابا * إنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازا * حَدائِقَ وَأعْنابا * وَكَواعِبَ أتْرابا * وَكَأساً دِهاقا * لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا كِذّابا * جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِسابا * رَبِّ السَّماواتِ والأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطابا * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ والمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمونَ إلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَوابا * ذَلِكَ اليَوْمُ الحَقُّ (31) .

ونجد ، أحياناً كثيرة، من نحو آخر، في هذه النصوص، ان وصف متع الجنة يتعاقب في شكل تضادي مع وصف عذاب الجحيم :

هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الغاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ * عامِلَةٌ ناصِبَةٌ * تَصْلى نارًا حامِيَةً * تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْني مِنْ جوعٍ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ * لِسَعْيِها راضِيَةٌ * في جَنَّةٍ عالِيَةٍ * لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (32) .

إن الأشخاص ذاتهم : حور عين ، وأبرار متكئون على الأرائك يطوف عليهم غلمان بأكواب، وأشرار يصلون ناراً حامية، يسقون من عين آنية ... يتحركون وسط منظر متماثل دوماً ... وجنات عَدْن تجري من تحتها الأنهار فيها من كل الثمرات، قطوفها دانية ، ونار جهنم توقدها الزبانية ... ان هذه التفصيلات الفريدة في شدّة تعبيرها أحس بها المكيون الذين يعيشون على أرض تلهبها الشمس، وأحسوا بما فيها، على وجه الحصر . وقد شعر بعض علماء الكلام في

(31) القرآن الكريم : سورة النبأ 78، 17 — 40 .
(32) سورة الغاشية 88 — 3 — 16 .

عصور تالية وتحت تأثيرات هيلينية، بشيء من الحرج من هذا الجانب الذي خيل لهم انه مادي ، فحاولوا ايجاد تخريجات أخرى للنص القرآني هي من شأنهم .

إن للأوصاف الأخروية، الواردة كما هي في السور، طابعاً استحضارياً مثيراً مميزاً للذهنية العربية، وان ترديد الأجزاء التفصيلية ذاتها، عوضاً عن أن يسبب كلَلاً، فهو يؤثر على العقل في شكل هاجس ثابت، مُطلقاً زمرة من التصورات الثانوية التي لا تؤلّف دون ريب لوحة، ولكنها تفجر محيطاً . ولنذكر دوماً مدى تأثير هذه الأوصاف على مستمعين متأهبين للتحمس لصور المتع واللذائذ، ولنتصور أيضاً الفزع الذي يثيره التهديد باليوم العصيب في بعض النفوس .

إذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ * وإذَا الكَواكِبُ انْتَثَرَتْ * وإذِا البِحَارُ فُجِّرَتْ وإذا القُبُورُ بُعْثِرَتْ (33) .

إن هذه اللمحة الأخيرة وغيرها مماثلة، تومض كالبرق، صافعة بقوة المستمع في كل زمان فماذا كان تأثيرها على أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام الذين اعتادوا سماع التنبؤات العادية ؟ .

إنها لمسألة تقودنا الى « إعجاز » القرآن .

واننا واجدون في زمرة ثالثة مؤلفة من إحدى عشرة سورة، الموضوعات الأخروية ذاتها مضافاً اليها، بالمقابل، الردود على المعارضين، وقد تلقى الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الآيات المنزلة في زمن لم يكن واثقاً من استلحاق خصومه بصفوفه . ان لهجة الجدل لاذعة لا هوادة فيها على من كانوا هدفاً لها ، وليس فيها آيات جَدَلية الا قليلًا بل هي لمحات خاطفة وردود لا مجال للاعتراض عليها، وتحديات.

وَيْلٌ لِلمُطَفِّفِينَ * الذينَ إذَا اكْتالُوا على النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وإذا كَالُوهُمْ أوْ وَزَنُوهُم يُخْسِرُونَ (34) .

(33) سورة الانفطار 82 — 51 .
(34) سورة المطففين 83 — 1-3 .

كلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ اليتيمَ * وَلَا تَحاضُّونَ عَلى طَعامِ المِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُراثَ أَكْلًا لمًّا * وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا (35) .

ولكي يُغلق نولدكه واشكوالي هذا الدور جمعا دون تردد خمس سور قصيرة هي صيغ للصلاة اشهرها « الفاتحة » التي تذكرنا بالصلوات المسيحية .

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الطِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (36) .

ان تطابق الاسلوب في هذه السور الأولى محسوس جداً ، فالوحدات الايقاعية، وبخاصة القصيرة منها، لا تتجاوز على وجه العموم، عشر مقاطع، كما أن للفواصل ايقاعًا شديد البروز، وينتهي بأسجاع متنوعة مجموعة في ثلاث وأربع فواصل، أو أكثر، فسورة الناس مثلًا مؤلفة من ثماني وحدات ايقاعية ذات سجعة واحدة وهكذا حصل التأثير الناشيء عن التطريق السجعي، ونشأ اخر عن ترديد الصيغ ذاتها، وتركيب الجمل ذاته، وما أكثر بخاصة، القسم الذي استحضر من خلاله الكون بتنوعه اللانهائي ليشهد على يوم الحشر :

والشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ اذا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ اذا جَلَّاهَا * واللَّيْلِ اذا يَغْشَاهَا * والسَّماءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (37) .

ان تفاوت الوحدات الايقاعية، مضافاً اليها قصرها، تضفي على الأسلوب حركة حية ، سريعة ، رائعة :

اذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَاذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَاذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذا العِشَارُ عُطِّلَتْ * واذَا الوُحُوشُ حُشِرَتْ * واذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ * وَاذَا النُّفُوسُ

(35) سورة الفجر 89 — 17 — 21 .
(36) سورة الفاتحة 1.
(37) سورة الشمس 91 — 1 — 11 .

زُوِّجَتْ * وَإِذَا المَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الجَحِيمِ سُعِّرَتْ * وَإِذا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ * فَلَا أُقْسِمُ بِالخُنَّسِ * الجَوَارِ الكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (38) .

ولكن ، لنقل على سبيل الاعادة : ان القرآن موعظة، ففي النصوص الشائعة في ذلك الدور تبزغ هنا وهناك ملامح أسلوب خطابي بعباراته الطويلة المتماسكة الأجزاء، وترديداته، وجمله الاعتراضية وطباقاته :

اذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ المَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ المُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ اليَمِينِ * مَا أَصْحَابُ اليَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ اليَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ * وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * انَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ

(38) سورة التكوير 81 — 1 — 23 .

على الحِنْثِ العَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُراباً وَعِظَاماً إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آباؤُنَا الأَوَّلونَ * قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ انَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمالِئُونَ مِنْهَا البُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهِيمِ * هَذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (39) .

وأخيراً فاننا واجدون في سورتين تركيباً ذا لازمة تتكرر على نحو موصول ، فان العبارة المردّدة او اللازمة لا تعاد في فواصل منتظمة، ولا يسعنا الاشارة الى تركيب المقطوعة الشعرية، بل من الأفضل الاشارة الى وجود طريقة غايتها التأثير على السامع بطريقة استحواذية :

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الجَوَارِ المُنْشَآتُ فِي البَحْرِ كالأَعْلامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ والاكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (40) .

ولا جَرَمَ في انه اذا كان ثمة شيء تعجز الترجمة عن ادائه فانما هو الايقاع الكلامي في الآيات المنزلة في ذلك العهد . وفي الحق فاننا باقون هنا في حيز الشعر الصِرف حيث يحتل ايقاع الكلم المرتبة الأولى ويأتي بعد ذلك التأثير الفكري، ذلك ان خصوم محمد عليه الصلاة والسلام قد أخطأوا عندما لم يشاؤوا ان يروا في هذا الا اغاني سحرية وتعويذية، وبالرغم من اننا على علم استقرائياً فقط، بتنبؤات الكهّان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطل هذا الحكم وتهافته، فان للآيات التي أعاد الرسول عليه الصلاة والسلام ذكرها في هذه السور اندفاعاً وألَقًا وجلالة تخلف وراءها بعيداً أقوال فصحاء البشر كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعة التي وصلتنا .

---

(39) سورة الواقعة 56 — 4 — 56 .

(40) سورة الرحمن 55 — 19 — 39 .

سور العهد المكي الثاني :

اذا فتحنا المصحف العثماني على سورة التكوير وتابعنا قراءة ما بعدها استطعنا مع نولدكه واشكوالي أن نجمع زمرة متناسقة الى حد بعيد، مؤلفة من اثنين وعشرين نصاً أطول من تلك التي مر الكلام عليها . ان هذه النصوص مجموعات تركيبية مؤلفة احياناً من آيتين أو ثلاث آيات منزلة ، متميزة في منشئها ، ولكنها من عهد متقارب جداً ، فالله دوماً هو « الرحمن » ويشير محتوى هذه الآيات الى الهوة التي تزداد كل يوم اتساعاً بين المشركين المكيين ونبي المسلمين اذ أنه ، عليه السلام، متمسك بالوحدانية . فان عقيدة « الوحدانية » الربانية التي ورد ذكرها في سور العهد السابق، معلنة هنا باصرار، ومن جهة أخرى فان النبي عليه السلام ما فتىء يردد بأن الرسول الجديد نذير بقيام الساعة ورسالة تدعو العرب الى الإيمان بالله وعمل الخير انتظاراً ليوم الحساب الأخير، فليس عليه من حرج إذا اصر المكذبون برسالته على عدم التوبة إلى الموت، ومن جهة أخرى فان المشاهد الأخروية احتلت المرتبة الثانية، فالموضوع الأساسي للدعوة مؤلف ، في الواقع ، من التذكير بكلام الرسول عندما يدعو الناس في الصحراء الى الهدى . ذلك التذكير الذي صور في السور السابقة تصويراً مجملاً . ونحن واجدون في العصور الخوالي شعوباً أخرى تصامت عن المرسلين ، كقوم عاد في جنوبي شبه الجزيرة العربية، وثمود في وادي القرى شمالي المدينة، وقوم نوح، ولوط، وفرعون . إن كل هؤلاء ضُربوا ودُمروا جزاء تكبرهم وكفرهم برسالات انبيائهم . وهكذا فان غضب الله سيحل بالمكيين الذين لم تؤثر فيهم نداءات محمد عليه السلام في حين أن المؤمنين سينقذهم إيمانهم بالدّين الجديد .

ان عددا من تلك السور هو بمثابة مواعظ مقسومة الى زمر، فالأولى منها تتضمن تحذيراً ودعوة الى اعتناق الاسلام، وتهديداً موجها الى الكفرة . وتحتوي الثانية، وهي مختلفة الطول، على حكاية العقاب الذي نزل بمن عصوا أمر الله في الماضي، والثالثة بمثابة خلاصة وتعود أحياناً الى موضوع الأولى .

ومن المفيد جداً أن ندرس، من الوجهة الأدبية، الأساليب المستعملة في الفقرات العديدة التي تفسر هذه المواعظ، ويجدر التزام الحذر الشديد ، وينبغي

الوقوف عند حدود الحكم الخاضع لاعادة النظر ومن الممكن أن تقوم الدراسة على انتخاب موضوع خاص كقصة نوح او إبراهيم أو لوط، فان قصة موسى تقدم لنا، نظراً لتواترها، نقاط مقارنة أكثر عدداً، وقد تكون القصة احياناً في مكان آخر مجرد ذكر بسيط، ولا تهدف هذه القصة بصيغها المركزة إلا إلى الإرشاد .

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (41) .

ويغلب على العرض الانشائي ، في أغلب الأحيان، شكل مفصل يمكن مع ذلك تقديمه في روايتين متماثلتين ، واليكم على سبيل المثال كيف يصف القرآن في سورة من ذلك العهد، قصة موسى والفراعنة والسحرة :

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (42) * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ

(41) سورة الدخان 44 — 17 — 32 .

(42) اشارة الى المصري الذي قتله موسى

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (43) .

قد صُعّد هذا النص المفعم بالنضارة والمفاجآت في نظر المكّيين باستعمال النثر المسجوع الايقاعي، وهكذا فان البيان عمل مرة أخرى على دعم المعجزة .

سور العهد المكي الثالث :

وثمة اثنتان وعشرون سورة أخرى من تلك التي جمعها نولدكه واشكوالي تمثل الآيات المنزلة على الرسول عليه الصلاة والسلام طوال السنين الأخيرة من مكثه في مكة، مسقط رأسه . ان طول هذه السور جدّ مختلف، مما يفسر توزّعها في القرآن وتكمل هذه الآيات غيرها في الدور السابق، سواء في المعنى أو المبنى ونحن شاعرون من اسلوب الرد، بأن عداء المعارضة المكيّة اتخذ شكلًا أكثر عنفاً ،

(43) سورة الشعراء 26 — 16 — 51 .

فالموضوعات الأخروية الموسعة آخذة في النكوص، وتظلّ عند ظهورها في حدود الموجزات والاشارات الخفيّة كقوله تعالى :

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذَا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفي خَلْقٍ جَديدٍ أُولئكَ الَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئكَ الأَغْلالُ في أَعْناقِهِمْ وَأُولئكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (44) .

وثمة استثناء واحد في سورة الأعراف حيث يركز الوصف بنوع خاص على البقاء في العالم الآخر، وفي مقابل ذلك فانَّ موضوع النبي الذي يبشر في الصحراء يظل غالباً ، ويضاف، بصورة متواترة الى قصص رسالات نوح، وإبراهيم ولوط، وموسى، وبعثات هود، وصالح، وشعيب، أنبياء عاد وثمود وبني مَدْيَن في شبه جزيرة العرب واليكم بهذا الصدد مثالاً نموذجياً مأخوذاً من آيات عن النبي شعيب عليه السلام :

... قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا في الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ★ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا اذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ★ وإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بالذي أُرْسِلتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ★ قَالَ المَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ★ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا في مِلَّتِكُمْ بَعْدَ اذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ★ وَقَالَ المَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ اذاً لَخَاسِرُونَ ★ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ

(44) سورة الرعد : 13 — 5 — 6 .

جَاثِمِينَ ★ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ★ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (45) .

ان الجدل العنيف مع الكفار، مُتواتر في جميع السور السابقة ولا يقل تواتراً في نصوص هذا الدور الثالث، ومنه نشأ هنا أيضاً ذلك التأكيد في شكل يكاد لا يختلف تنوعاً ، ولا ريب اطلاقا في أن ذلك يشبه تكرار القصص عن الأنبياء .

ويحتوي القرآن على بعض الأمثال الرمزية كالأمثال الآتية :

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (46) .

أو .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ★ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ★ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ★ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ (47) .

وقد يتحول المثل الرمزي الى صورة دقيقة وشعرية كما في قوله :

إِنَّما مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى اذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (48) .

(45) سورة الاعراف 7 — 85 — 94 .
(46) سورة العنكبوت 29 — 41 .
(47) سورة ابراهيم : 14 — 24 — 27 .
(48) سورة يونس 10 — 24 .

وتضمّ الرسالة التي بشّر محمد عليه الصلاة والسلام منذ البداية بحكم طبيعتها، طائفة من الأوامر والنواهي موجهة الى المؤمنين، وهناك سور نجد فيها « وصايا » .

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ★ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ★ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (49) .

إنّ نصّا من هذا النوع موجود أيضاً في سور لعلها سابقة، وإنّ تلك الآيتين الغنيّتين بمحتواهما ـــ ونحن نَحْزُرُ مِقدرا ما استطاع علم التفسير وعلم الكلام أن يستنتجاه منهما فيما بعد ـــ لا يقلان دلالة أيضاً في مبناهما، فهما يفرضان في الواقع بيئة جديدة، ورعيّة مؤمنة موحدة ودعوة إلى مصير أوسع .

أما فيما له علاقة بالأسلوب فان سور هذا الدور الثالث تدل ايضاً على الاتجاهات التي أشير اليها في الآيات السابقة إذ قد انتهى عهد وميض الآيات القصيرة كما انقضى زمن التذكير باقتراب الساعة، واللهجة، حتى في احتدام الجدل، فكر مُوجّه .

تتطلب الفكرة قالباً مناسباً لها، وتبدو العبارة عند تلقيّها أكثر اتساعاً ثم عمّ استعمال الصفات المزدوجة التي استعملت في سور الدور الثاني مثل : العزيز الحكيم، والعليم القدير .

وفي مقارنة بين هذه الآيات الآتية : احداها من أوائل الدور الثاني المكّي والأخرى من الدور الثالث :

(49) سورة الانعام 6 ـــ 151 ـــ 153 .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبراهيمَ الْمُكْرَمِينَ ★ إِذْ دَخَلُوا عليه فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ★ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ★ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ★ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ★ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ★ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ ★ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ★ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ★ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ★ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسرِفِينَ ★ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ★ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسلِمِينَ (50) .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ابراهِيمَ بالبُشرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ★ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا الى قَوْمِ لُوطٍ ★ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعقُوبَ ★ قَالَتْ يَا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عَجِيبٌ ★ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ★ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (51) .

أقول : في مقارنة بين الآيات نجد أنه من الخطإ أن ننسب القيمة الأدبية لمثل هذه الآيات الى موسيقى الكلمات وحدها . إنّ مزيّة هذه القطع مردّها أيضاً الى الفن المكوّن من البساطة التي أشرْنَا ، والكلمات الموضوعة في أمكنتها، والى الحركة التي تركز الشخصيات . ان هذه الظاهرة واضحة في سورة يوسف . وإذا ما قُورن القصص القرآني ببعض الفصول المشابهة في سفر التكوين **Genèse** المثقلة باللغو والاستطرادات، ظهر أن القصص القرآني أعلى مرتبة بما لا يقاس، فهو

(50) سورة الذاريات 51 ـــ 24 ـــ 36 .

(51) سورة هود 11 ـــ 69 ـــ 74 .

يتدرج برشاقة دون اشارات زائدة، تسيطر عليه فكرة مواسية ألا وهي انّ العادل ينتصر بإيمانه ووفائه .

وليس فن الحكاية، في سور أخرى ، هو الذي يحملنا على التقدير بل المميزات الخطابية والأسلوبية، ففي سورة الأعراف يعجب المرء عندما يقرأ من الآية 57 الى الآية 91 عن الأنبياء نوح وهود وصالح ولُوط وشُعيب، من توازن القصص الخمس والتأثير المزدوج من تكرار اللازمة .

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ .

وأخيرا نجد آيات مثل هذه :

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ★ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ★ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ★ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ★ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي الى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي الى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ★ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (52) .

ونلحظ بالاضافة الى تنوع التركيب، حيث يتناوب الاستفهام والتأكيد الحاسم، اندفاع الفكر الذي يدافع الخصم ويرهقه دون ان يتيح له وقتاً للاجابة واستعادة الروع، فان ثمة بلاغة عفوية نستشفها حتى من خلال الآيات المترجمة .

سور الدعوة في المدينة :

تعكس الآيات المنزلة خلال المرحلة الأخيرة من الدعوة الاسلامية بدقة كافية

(52) سورة يونس : 10 — 31 — 37 .

المشاغل التي استحوذت على الرسول عليه الصلاة والسلام والصعوبات التي كان عليه تذليلها، ويمكننا بفضل بعض الاشارات التعريفية العديدة، القليلة القابلية للمناقشة، وذات التعليل الميسور، متابعة الحوادث التي طبعت ظفر الاسلام الدائب ومؤسسه ، فثمة اولا المنازعات مع القبائل اليهودية في الواحات، وفشل محاولة ضمهم إلى الحنيفية ، ثم الجهاد المسلح في سبيل الله ومحاربة مشركي مكة، وأخيراً انتصار الأمة المجاهدة على أعدائها، والبعوث الأولى على حدود المجال العربي .

ونجد أيضاً في هذه النصوص حلا للمشاكل التي لها مساس بالاحوال الشخصية والعلاقات مع الذميين وقانون العقوبات والعلاقات الاجتماعية، **بعامة** وتشكل الآيات المنزلة على محمد عليه الصلاة والسلام في المدينة من سنة 622 م إلى 632م مادة مائة وعشرين سورة، وهي، **بعامة**، طويلة جدا، وموضوعة على رأس مصحف عثمان، ووجد بعض هذه السور مبعثرة في مواضع أخرى من المصحف. ان هذه النصوص المنزلة، بحكم محتواها، وبخاصة بحكم المقتضيات الشرعية التي نجدها فيها، قد دوّنت بمدة وجيزة، ان لم يكن ذلك مباشرة بعد نزولها على الرسول الملهم .

وهكذا مثلا في سورة البقرة، فالآيات 220 الى 232 تعالج بالتتابع موضوعات الزواج والأيمان، **بعامة** (الآيات 224–225) والطلاق بحلف، ومع ذلك فقد استدعت حالات معينة وغير متوقعة نزول آيات جديدة قد تصادفها في سور عديدة، مثال ذلك الترتيبات التي تهدف الى الطلاق والمذكورة في سور ست، واذا ما تصفحنا سورة البقرة هالنا تعداد الموضوعات المعالجة التي تبدأ من وعظ المؤمنين الى مجادلة اليهود لتصل الى تشريعات عن المأكولات المحرّمة، والقَوَد، والوصايا، والصوم، والزواج والطلاق ... الخ وثمة مثال في سورة آل عمران في الآية 77 وما بعدها، فان التعريض الذي ينم عن خيبة محمد عليه الصلاة والسلام في معركة أحُد (624 م) ينقطع فجأة بذكر تحريم الربا (الآية 130) ثم يُعاد ذكرُ المعركة بصورة مشجعة للمؤمنين .

وندرك أيضاً أنه كان على الأسلوب في الآيات المدنية أن يتكيف وطرائق جديدة في التفكير؛ فالآيات تنزع اكثر فأكثر الى التمدد حتى لتبلغ الآية في بعض

الأحيان صفحة كاملة . إن الفواصل المسجوعة أو المتوازية هي ذاتها في الدور السابق أو ما يقرب من ذلك . على أن ضرورة وجودها بلغت حد انها كانت تقع في آخر مجموعة من الجمل .

ينزع الناس أحياناً الى جعل السور المدنية مقابلة للسور التي سبقتها مباشرة، وفي الواقع فان التحوّل من إحداها الى الأخرى يتم بصورة انتقالية، وعلاوة على ذلك ففي سورة البقرة المؤلفة في غالبيتها من نصوص معاصرة لنزول المسلمين المدينة، بعض الآيات المنزلة الأكثر قدماً قد ادرجت .

ان تبكيت المؤمنين، ومجادلة غير المسلمين وارد في هذه السور، وهو شبيه بما في سابقاتها من السور، فالخصم قد تغير والقدح موجه لا الى مشركي مكة بل الى يهود يثرب، كما أن اللهجة والاندفاع وحدّة الخطاب لم تتغير، وأدت الظاهرة الجديدة الى ظهور تشريعات فقهية نجدها مكثفة في نصوص تشريعية تعدد الحالات المقصودة والشّواذ الضرورية والعقوبات تجاه المخالفين . ان هذه الآيات ذات قيمة رئيسية في تكوين القانون الاسلامي، ولعلها من أقدم الأمثلة على اللغة القانونية عند العرب .

وبما أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان مستغرقاً في شؤون المسلمين ومحاربة المشركين نزلت عليه إذا أثناء دعوته في المدينة آيات غلب عليها طابع عملي .

هذا وثمة بعض المواقف الجدلية الحادة المماثلة لسابقاتها كما في :

قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ★ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ★ وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ★ وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ★ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (53) .

(53) سورة المائدة 5 — 59 — 64 .

ومن نتائج الظرف الجديد أن قصص الأنبياء العرب صالح وشعيب وهود لم تعد تذكر أثناء الدعوة في المدينة، فان مجادلة اليهود ومجادلة النصارى فيما بعد، أدتا، لقاء ذلك، الى الرمز من جديد إلى إبراهيم الخليل وموسى وعيسى، فان الحكاية في هذه السور لم تعد تبدو بوصفها قطعًا أساسية في حد ذاتها،فكأن الامور تجري لكي يتركز الاهتمام في الناحية الخُلقية أو العبرة التي تستخلص منها .

إِذْ قَالَ الحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ★ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ★ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ★ قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ (54) .

ولا يوجه الاهتمام الى حد كبير، الى المعجزة بل الى إدانة الناس القليلي الايمان الذين طالبوا بتلك المعجزة . وقد ازداد طابع التجرد في السور المدنية حدّة متناهية، وهذا لا يعني مع ذلك أن الاصرار على عقيدة الثواب على الاعمال قد اصبح أقل ترداداً، إن هذا التأكيد، كما كان في السابق أو أكثر، حاصل :

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (55) .

ويوجه الرسول عليه الصلاة والسلام كلامه الى مؤمنين كانوا يعرفون من خلال

(54) سورة المائدة 5 — 112 — 116 — 83 .

(55) سورة محمد 47 — 15 .

الدعوة المكية ما ستكون عليه الجنة والنار، فالمقصود اذاً تذكير واستحضار، لا أكثر ولا أقل :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ★ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ★ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (56) .

ان الاشارات العديدة الى حوادث ذات اهمية متنوعة طبعت بطابعها تاريخ المسلمين في المدينة، لجديرة باهتمام خاص، فليس ثمة ما يشبه حكاية مطوّلة، أو تأريخاً، حتى ولا تخطيطاً لعرض تاريخي .

وإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ★ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ★ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ★ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ★ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ★ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ★ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (57) .

وملخص القول : إن النص القرآني واقع في مجال آخر بعيد عن مجال التاريخ

(56) سورة التحريم 66 — 6 — 8 .
(57) سورة آل عمران 3 — 121 — 127 .

فهو ينزع الى الأسمى، مع بقائه في حيز التاريخ . إنما هو تعليم ونوع من الدعوة الى الفضائل الخلقية، وإذا ما أصيب المؤمنون بالهزيمة فلأنهم خالفوا الأوامر التي أوحى الله بها الى نبيهم :

أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ★ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ... (58) .

تتركز قيمة النصوص الفقهية ذات الفائدة الجلى في تاريخ اللغة في المقام الأول في نظر المسلم في دقتها وتجردها فقد اتخذت دعوة محمد عليه الصلاة والسلام من جراء تكيفها مع الظروف الجديدة في هذا الحد النهائي، شكلاً يحتوي، البذور الأولى للنثر الأدبي .

وتكشف دراسة السور الأربع التي رسمنا خطوطها عن خط منحن، وقد لحظ المسلمون ذلك جيداً، فثمة أدب بكامله نما بحكم الظروف الطارئة للوحي القرآني، وهذا الأدب، وان كان خاضعاً للجدل في معطياته، فانه مع ذلك يقيم وزناً للحظات الوحي، وتطوره من حيث الشكل، مع أن القرآن الذي هو عند المسلمين صرح أدبي، يشكل كلًا لا يتجزأ، فهو تعبير عربي لكلام الله، كما أنه جميل عجزت المحاولات البشرية عن مداناة جماله . ويعين مفهوم اعجاز الرسالة الاسلامية حدود التحليل الأدبي، أو أنه بالأحرى يدفعه في طريق وحيدة . وقد تميز الشرق مرارا بأنه حمل الى الشرقيين كتاباً مقدساً هو في الوقت ذاته الصرح الأكثر سحراً في أدبهم . وأحدثت هذه الظاهرة التي جهلها الغرب تأثيراً حاسماً على فكر الشّعوب التي عرفتها، وكذلك شأنها في العالم العربي الاسلامي الذي وضعت جميع مساعيه الفكرية تحت شعار الوحي المنزل على محمد عليه الصلاة والسلام في مكة والمدينة .

(58) سورة آل عمران 3 — 165 — 167 .

الظاهرة القرآنية :

لن نستطيع التوصل إلى إفراد الظاهرة الأدبية في الآيات المنزلة على محمد عليه الصلاة والسلام الا ببذل جهد تجريدي . أما عن انتصار الاسلام فثمة أسباب تداخلت وفي طليعتها القرآن وحالة الحجاز الدينية وعبقرية الرجل المرسل لابلاغ الرسالة المنزلة عليه والصفات الخارقة والمتباينة عند بعض من أشياعه كعمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان على وجه خاص . ومن الضروري ادخال عناصر أخرى سنعود إلى معالجتها ، وبخاصة الحركة المتحدرة من الأجيال السابقة التي تسوق العربي الى خارج مجاله ، زد على ذلك ضعف المقاومة عند العالمين البيزنطي والساساني .

وكان القرآن سببا أساسيا وكلّما تتابعت الحوادث صار هذا السبب حاسما ففي الوسط الذي تمت فيه التجربة انتقل العامل الديني ، بفضل اجتهاد بعض معتنقي الاسلام وحماستهم الى مكان الصدارة ، فالمرء ينتصر على خصومه لأنه أقوى منهم ، وهو أقوى منهم لأنه يطيع الله ورسوله ويؤمن بكلامه المنزل وهكذا فان مفهوم إعجاز القرآن (59) ينبثق من بين هذا المجموع .

ولنحاول مع ذلك ، بعد أن نضيق مجال الحقيقة ، أن نبعد جميع ما تأتى عند خصوم النبي من أحقاد شخصية ، ومطامع خائبة ، ومصالح معاكسة ، ونزعة دينية مهانة ، وألا نهتم إلا بما يمت بصلة الى القضية الأدبية .

---

(59) إن كلمة « إعجاز » تغطي في الواقع مفاهيم أكثر اتساعاً وتعقيداً . ولسنا واجدين في القرآن ورود الكلمة في وزني الفاعل أو المفعول المقابلين . ويبدو أن الكلمة قد استخدمت من قبل علماء الكلام المسلمين، فأصبحت حيّة حوالي أواخر القرن الثاني للهجرة الثامن للميلاد، فان الفعل أو اسم الفاعل معناهما إظهار عجز معارضي الاسلام عن مساواة ما انزله الله؛ ولعل المعنى أيضاً افحام الخصوم، وقد صيغ المفهوم، بتأثير الآيات القرآنية كالآية 23 من سورة البقرة، بشبات التحدي الموجه الى المشركين في أن تكون لهم قدرة على أن « يأتوا بمثل القرآن » . ومن هنا انتقلوا الى الجزم بأن القرآن معجز لأنه من منشإ آلهي .

ان هذا الهجوم معروف لدينا بصورة موثوقة بواسطة القرآن ذاته (60) ، فما أكثر ما نقرأ في العهدين الأول والثاني في مكة آيات مثل هذه :

وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أثيمٍ ★ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (61) .

وهكذا كان قصص القرآن عن نوح ولوط وموسى وهود وصالح وشعيب في نظر المشركين قصصا يعود إلى منشإ جدودي لا أكثر ، ولئن أملى احتجاج الكفار مقاربات عفوية أو حدّة الجدل فهذا ما لا قيمة له ، ولكن الظاهرة التي يجدر الاحتفاظ بها هي بقاء أهل مكة طوال خمسة عشر عاما ونيف غير آبهين بهذا القسم المهم من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

هذا وقد ردد القرآن احيانا أصداء اعتراض وجه للرسول عليه الصلاة والسلام اثناء دعوته في مكة ، فنحن نقرأ مثلا هذه الآية :

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (62) .

أو هذه الآية التي ردّد فيها القرآن قول المشركين المكيّين :

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ ؟ (63) .

كان مشركو مكة في هذه الحالة ، كما في سواها يرون أو لا يريدون أن يروا في رسول الله سوى رجل له علاقة بالجن ، مما يقطع صلة الرسالة المنزلة بالذات الآلهية .

---

(60) من المعلوم أن الحديث وعلم التفسير التقليدي يرويان طائفة من الأخبار بدا فيها خبث المكيين المعارضين للقرآن . ويمكن فقط، تاريخياً ذكر الآيات القرآنية العديدة التي هي رد على الكافرين والتي تذكر أحياناً بحملات هؤلاء بالذات .

(61) سورة المطففين 83 — 11 — 12 .

(62) سورة الطور 52 — 29 .

(63) سورة الأنبياء 21 — 5 .

أما موقف الفئة القليلة من المؤمنين المجتمعة حول محمد عليه الصلاة والسلام منذ دعوته الأولى في مكة فكانت ، حسب رواية السيرة ، مغايرة لذلك تماما ، وفي الواقع فليس ثمة ما يدحض هذه الرواية وخاصة إذا تذكرنا بأن مصدر إعجاب هؤلاء الاتقياء بالنبي العظيم هي تلك الآيات المحارة التي أنزلت عليه في الدور الأول من الدعوة في مكة ، ويبدو أن هذه الآيات أو جزءا منها كان موضع تلاوة مشتركة ، ونحن نجهل الطريقة التي كان يتبعها المؤمنون في استظهار هذه النصوص جهلا تاما ، ولعلهم كانوا يرتلون هذه الآيات (64) ، ومهما يكن من شيء فاننا نقدر بأن هذه التلاوة كانت ذات تأثير على السامعين ، ويمكن في هذا المجال الاستشهاد بالظروف التي ادت بالخليفة عمر بن الخطاب إلى إعلان اسلامه ، فقد كان عمر مناوئا بضراوة للدين الجديد (65) ، وتقول الروايات انه دخل يوما على اخته التي اسلمت فسمعها تتلو وزوجها بصوت عال عشرا من القرآن ، فكانت تلك التلاوة إشعاعا من نور الايمان نفذ إلى قلبه ، فقد بهره جمال الآيات التي سمعها فاستعادها كلها متأثرا بها الى حد البكاء ، وليس مستحيلا أن يشعر أشخاص آخرون من حاشية محمد عليه الصلاة والسلام بذلك الجمال العنيف المصحوب عندهم ، هذه المرة ، بطائفة من معان اخرى ذات منحى ديني . ولم تتعد هذه الحماسة التي اثارتها صفات القرآن الأدبية ، طوال الدعوة في مكة ، حلقة ضعيفة لا يكاد يبلغ عدد افرادها المائة ، وقد اتسعت هذه الحلقة بعد الهجرة الى المدينة سنة 622 اتساعا كبيرا .

ان اهتداء المدنيين الى الاسلام مردّه كما نعتقد الى : دعوة محمد عليه الصلاة

(64) من الصعب، في هذا الدور الأول، اعتبار بعض الآيات التي جمعها البخاري في « فضائل القرآن » ترجمة هودا **Houdas** 533/3، 538، 539، تقرر استعمال الترتيل في تلاوة القرآن . وتجيز هذه المعطيات، على الأكثر، الاعتقاد بأن التلاوة المرتلة كانت معاصرة للرسول عليه السلام .

(65) وصل إلينا خبر إسلام عمر في روايات عديدة متطابقة ولكنها مختلفة في بعض الجزئيات . راجع : كايتاني « حوليات الاسلام **Annali del Islam** » ميلانو 1905 ــ 1926 285/1 وما بعدها .

والسلام ، ومحتوى التشريع الذي جاء به ، وصفات رسالته البيانية . ويطرح انضواء مجموعات الأعراب المجاورين للمدينة تحت راية الاسلام ، ومن بعدهم أعراب أواسط شبه الجزيرة العربية قضية تشبه تلك التي طرحها مشركو مكة الذين اسلموا في الساعات الأخيرة ، والذين كنى عنهم القرآن بصورة محتشمة بالمؤلفة قلوبهم . ولا ريب في أن بعض هؤلاء من التجار المهرة ، والسياسيين المحنكين ، اعتنقوا الاسلام انقاذا لامتيازاتهم وأملا بالحفاظ على مصالحهم ، اما الأعراب المجاورون للمدينة فلم يترددوا في اعتناق الاسلام بعد ان كانوا في ريبة من مصير طائفة صغيرة من مسلمي المدينة إلا أنهم هبوا للدفاع عن الدعوة عندما بدت طلائع انتصار هؤلاء المدنيين (66) . وثمة عوامل أخرى عديدة سببت ، أو كان في مقدورها ان تسبب هذه الهدايات ، وكل شيء يحمل على الاعتقاد بأن هؤلاء المهتدين الجدد لم يفتأوا منذ دخولهم في جماعة المسلمين يصرحون بدورهم ، باعجاز القرآن . وقد قبلت اجيال المسلمين المقبلة ، على مرور الأيام ، هذا المفهوم بوصفه فعل ايمان . ولا تزال بعض الأصداء البعيدة للانفعالات التي كانت تثيرها تلاوة القرآن عند سامعيها في القرن الأول للهجرة (67) ماثلة من خلال

(66) تشهد بذلك، دون مواربة، كتب السيرة، وهذا وارد أيضًا في القرآن «سورة الفتح الآيتان 11، 16» وفيه شكوى من تناقض موقفين للأعراب الأول تخلفهم الشديد عن القتال والآخر عزمهم على المشاركة في غزو كان محمد عليه الصلاة والسلام يصدهم عنه.

(67) في حديث عن ابن مسعود أن الرسول عليه الصلاة والسلام اغرورقت عيناه عند سماعه آيات من الذكر الحكيم تأثراً بجمال أسلوبها «راجع البخاري ــ فصل فضائل القرآن ترجمة هودا **Houdas** 540/3 وما بعدها » إنّ هذه الامثلة التاريخية تبرز ما يسمى « بالحالات الشعرية **Etats poétiques**» التي يمكن أن تنتاب مستمعين في القرن الأول أو الثاني للهجرة عند سماعهم تلاوة قرآنية، وتنزع الى تسويغ الحالات الشعرية التي تطرح مشكلة أمام المؤمنين المأخوذين بسحر الآيات . والجدير بالذكر اليوم أن ترتيل بعض آيات من سورة الكهف، وخاصة عندما يكون القارىء رخيم الصوت، يثير عند المستمعين في بعض مساجد القاهرة حماسة وصراخاً « راجع : جوميه **Jomier**» « مكانة القرآن في الحياة اليومية في مصر » في مجلة **Ibla** تونس 1952 صفحة 143 وما بعدها . وراجع أيضاً تصريحاً للشيخ رشيد رضا في تفسير المنار 200 عن أثر القارىء في خلق هذه الحالات الشعرية .

المعطيات المتباينة المدرجة في كتب الأحاديث النبوية وبخاصة في صحيح البخاري ويبدو أن مفهوم الاعجاز ، الآخذ منذ ذلك العهد في الانكماش ، يتركز أكثر فأكثر على القيمة الجمالية للقرآن ، ونجد بين التحديات الموجهة الى الكفار في عجزهم عن خلق أي شيء يماثل القرآن ذلك التأكيد بأن البشر والجن عاجزون عن خلق كتاب على مثل هذا الجمال الكامل .

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ ... (الآية) .

وقد تبلورت هذه النزعة أثناء القرن الثالث واوائل القرن التالي عند المفسرين وعلماء الكلام، وعلماء الأساليب البيانية في آن واحد [68] .

وقد آلى بعض علماء المسلمين على انفسهم، تحت تأثير الهيلينية الواضحة الأثر في الربع الأول من القرن الثالث للهجرة والتاسع للميلاد ان يبرهنوا بطريقة مدرسية وسيطية على عقيدة الاعجاز القرآني، وان يشيّدوا بياناً عربيًا بواسطة المجازات القرآنية . وقد ابعدت روح هؤلاء المؤلفين المنهجية الى الصف الثاني ما كان في نظر جيلين أو ثلاثة أجيال من المسلمين الأول مصدرا وحيدا للاتقاد الديني وبرهانا على اعجاز القرآن [69] .

ويمكننا أن نكتشف ، دون عناء ، نتائج موقف العرب المسلمين عند وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، ويهمنا، من بين القضايا التي تشغلنا، ظاهرتان نحتفظ بهما، وسنرى أن كلا الظاهرتين تتدخل بوصفها عنصر تثاقف [70] ذا أهمية عظمى . وفي القرن السادس للميلاد استطاعت اللهجة الشعرية

---

(68) راجع بهذه المناسبة تصريحاً للجاحظ عن هذا الموضوع «نعيم الحمصي: تاريخ فكرة إعجاز القرآن».

(69) مازال هؤلاء المؤلفون محتفظين بسلطتهم في نظر العصريين أمثال الأستاذ رشيد رضا « تفسير المنار 202 » وقد اكتفى بأن أعاد الى صوتية اللغة القرآنية أهميتها « راجع : نعيم الحمصي 418 واصراره على الثناء على الصفة الموسيقية في النص القرآني » .

(70) التثاقف **Acculturation** : تبادل ثقافي بين شعوب مختلفة وبخاصة تعديلات تطرأ على ثقافة بدائية نتيجة لاحتكاكها بمجتمع أكثر تقدمًا .

بالاستعمال أن تحل محل اللغة الأدبية، ولم يكن ثمة ما يؤكد امكانية صلاحها للاحتفاظ بهذا المركز الممتاز، كما أن ليس ثمة ما يجيز الاعتقاد أنه في حالة تبدل الظروف لن تحل محلها لهجة أخرى رفعتها الظروف الى مصاف لغة تخاطب ثم لغة حضارة . وبعد ظهور القرآن وقع المحتوم ، فان هذه اللهجة الشعرية على ما فيها من التكييفات التي فرضتها البيئة اللهجية الحجازية، صعدت الى مصاف لغة عليا، فهي أولًا لغة دينية، أو بالاحرى لغة ممتازة اختارها الله تعالى لنقل رسالته النهائية الى الناس وهي، ثانياً ، لغة ذات ماهية تسمو بها لانها الى حد بعيد سبب إعجاز القرآن ، وهي ، ثالثاً ، لغة شعائر دينية لأنّ المؤمن يتلو في الصلوات الخمس نصوصاً قرآنية . وفي مقدور اللهجات، تجاه هذه اللغة، أن تعيش، ولكن دون أن تكون واسطة نقل الحركات الفكرية الموجودة في حالة الكمون ، في الظاهرة القرآنية،ان للظاهرة القرآنية، على المستوى الانساني، امتداداً سوياً غير منتظر على كل حال، بين سكان المجال العربي . فقد أثار انتشار الاسلام بين ظهرانيهم تطلعات او حاجات فكرية، وأجج تطلّعات أو حاجات سواها معروفة من قبل؛ فالمهتدون الجدد يفهمون قليلًا او يسيئون فهم النص القرآني، فمن ذا الذي يفسر لهم الآيات المنزلة وأفكار الرسول ؟ وما هي حياة الرسول في المدينة بين صحابته ؟ ومن ذا الذي ينقل للناس كلمَهُ، وحركاته، ونضاله في سبيل الدين الاسلامي، عندما يلتحق بالرفيق الأعلى ؟ وبرزت، على الفور، فعالية بكاملها ، ذلك أن دخول قبائل بدوية من أقاصي شبه الجزيرة في الاسلام تسوّغ هذه الفعالية وتفرضها، فليس ثمة أي حدود، ولا منهج يعين معالمها بدقة او ينسق بين اجزائها، هذا لم يسبقها، أيُّ تكوين، بل هي استعدادات موروثة تقوم على شؤونها . ويُكسب حفظ القرآن، كلياً أو جزئياً، بطبيعة الحال، هؤلاء الرجال النادرين مقاماً مرموقاً ويستدعي تعليم المهتدين الجدد ظهور طرق المرشدين وتعددها، انهم القراء وهم من أصل مدني أو مكي، وهم الذين انغمسوا في أجواء التدين الاسلامي في البداية، وكثيرون منهم يحنّون إلى ذلك الفجر الذي لا تعكر صفاءه أي نفحة دنيوية، ولا ريب في أن افقهم الفكري كان في مستوى متطلبات المستمعين، مستقطباً تطلعاتهم .

وبقيت الظاهرة القرآنية من خلال هؤلاء القراء مركزاً لفعالية فكرية تتلمس طريقها وتكشف وسائلها، ومن خلالهم أيضاً ــ وليس من خلالهم وحدهم ــ ينمو، بصورة خاصة، سير حركة التثاقف التي سبقت تكوين النثر الأدبي .

المظهر الأول لتثاقف العرب المسلمين :

لفت التاريخ الحوادثي [71]، على الأخص ، الانتباه عند دراسة التوسع العربي ، بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام سنة **632** م [72]، ولسنا، مقابل ذلك، على بَيِّنَةٍ من الظروف التي حصلت فيها عملية تثاقف العرب أبناء الصحراء الذين دعوا ليخلفوا الدولة البيزنطية جزئياً والدولة الفارسة الساسانية كلياً، ويمكننا ان نتبين، من خلال التاريخ الحوادثي توسع هذه الظاهرة في خطوطها العامة . وكانت العناصر المولدة للتثاقف في بداية الأمر هي سكان المدن في بلاد الشام والعراق ومصر، وكتل الحضريين الريفيين الذين يدورون في فلكهم . وتظهر هذه العناصر باكليروسها واستعدادها التقليدي للنقاش اللاهوتي ، وتقاليدها الكتابية، ومزاولتها الأعمال والادارة ، بمظهر المتمدنين : فظلت التقاليد الرومانية والهيلينية، والتراث الايراني من خلالهم على قيد الحياة . وكان هذا العالم حديث عهد بالمعارك التي أنهكت العملاقين : الساسانيين والبيزنطيين، فهزمت ايران اخيراً ولكن العرب المنتصرين لم ينالوا ثمناً لانتصارهم في بلاد الشام سوى بلدان مثخنة بالجراح .

ونجد من جهة ثانية تجاه هذه العناصر المثقفة، أكثرية من القبائل الرحل يقودها أسياد اميون، واقلية من الحضريّين تقودها طبقة من تجار مكة، ولا ريب في

(71) التاريخ الحوادثي هو الذي يقتصر على سرد الحوادث .

(72) لا بد كي يتم رسم المنظور العام من التذكير ببعض التواريخ، ففي سنة **632** م حدثت حروب الردة، وفي سنة **634** م تم احتلال مملكتي الغساسنة والمناذرة وفي سنة **635** م تم سقوط دمشق وحمص في أيدي الفاتحين، وفي سنة **637** م تم الاستيلاء على طيسفون ونهبها، وفي سنة **638** م استولى العرب على بيت المقدس وأنطاكية، وفي سنة **641** م استولى العرب على قيسارية في الشام، والموصل والاسكندرية .

أن الدين الاسلامي الذي اعتنقه أكثرهم، وأشربه آخرون اشرابا خفيفاً، عامل قوي في تطورهم الثقافي ، فقد أعلن الاسلام بطلان الأطر الاجتماعية الوثنية، فارضاً دراسة القرآن بوصفه قاعدة تشريعية، وينبوعًا أخلاقيًا، واساسًا للعبادة، فإذا كان هذا العالم العربي الاسلامي في حاجة ملحة للتثاقف فهو يبدو لمثاقفيه في ظروف تختلف بوضوح عن تلك التي عرفها البرابرة الجرمان تجاه الحضارة الرومانية . فقد وجد العرب المسلمون الذين يتحدرون بأصولهم من شبه الجزيرة العربية، والذين ألفوا في بداية الأمر، أطر الجيوش التي فتحت بلاد الشام والعراق، وجدوا أنفسهم تدريجياً في تماس مع عناصر عرقية غريبة عنهم تماماً، فعمدوا بعد خروجهم من محيطهم الى ادماج العرب المستعربة ضمن كيانهم، فاقتبست هذه عند اتصالها بالعالمين الساساني والبيزنطي بعض طرق التفكير، وبعض الوان خفيفة من الحياة الحضرية الصقت جميعًا على خلفية بدوية، مما جعل التكافل [73] بين هؤلاء الأخوة في اللغة، وأساليب العيش والميل لكل ما هو رائج، ممكن الوقوع ؛ فعوضاً عن أن تكون القشرة الرقيقة من المسيحية التي تلقاها ابناء الصحراء، حاجزا في وجه الوحدانية الاسلامية، فقد دفعتهم، بالعكس، الى تبنيها، فكان العرب المسلمون في نظر تلك القبائل بمثابة هداة الى الدين الجديد فلم يبق أمامهم إلا أن يسيروا على خُطى محمد عليه الصلاة والسلام طَوال السنين الأخيرة من دعوته، وقد استطاعت حماستهم في الدعوة للدين الجديد، ذات الطابع النضالي العنيف ، أن تكون مرنة وصبورة ، في حين كانت المجموعات الأخرى شديدة المقاومة .[74] ويحمل كل شيء على الاعتقاد بأن عدد الداخلين في الدين الجديد ازداد حسب ايقاع سريع جداً، وهكذا تكاثرت، دفعة واحدة، وفي شكل لا يزال مجهولا، تلك الجاليات الصغيرة التي انحدرت من الحجاز واواسط شبه الجزيرة العربية .

(73) التكافل اتحاد كائنين غير متشابهين أو تعايشهما.

(74) ان مقاومة قبيلة تغلب القوية للاسلام معروفة .

واذا ما ذهبنا الى أبعد من تلك المناطق التي تعني في الجملة مناطق السهوب الشامية والعراقية، فان موجة الفاتحين القادمين من الجزيرة غمرت مناطق مختلفة، وبالرغم من اسهام تجربة العرب المستعربة الذين التحقوا بالمسلمين أو اعتنقوا الاسلام، وبالرغم من مصادر الثروة التي كانت باستطاعة أقلية منهم أن تجنيها من اتصالاتها السابقة مع الحضريين أو المدنيين . ولم يكف العرب المسلمون في الحجاز ونجد واليمن عن الشعور بعبء فتوحاتهم، ونحن ندرك اليوم، مع تأخر الزمن، الأثر الحاسم الذي خلفه الجيل الأول والخليفة العبقري عمر بن الخطاب، أو ممثلو الأسر الكبيرة أمثال معاوية بن أبي سفيان، ويبدو أن فاتحي العراق وبلاد الشام ومصر أدركوا سريعاً ان من المصلحة الا يكونوا في هذه البلاد مبشرين بالدين الجديد فحسب ، فقد كان الوضع الشرعي **Statut** الممنوح لسكان البلاد الأصليين أبعد من أن يكون ـــ في العهد الذي يهمنا ـــ متماثلا ، فهو متعلق بسلوك المغلوبين وخضوعهم لأسيادهم الجدد (75) ، ولم يحدث في أقل الحالات مواتاة ، وهي مقاومة المغلوبين ، أي افناء للسكان المكبوتين ، بل حدث تهجير الأسرى إلى الحجاز ، وبخاصة الى المدينة ، واحتفظت الأقوام المغلوبة بعد الاستسلام بأديانها وأطرها الاجتماعية ورجحانها القائم على الثروة المادية والثقافية، ومكانتها التي استطاعت الاحتفاظ بها في ظل الاسلام في الادارة والتجارة والصناعات اليدوية . وهكذا فقد أنقذت قيم أساسية، تلك القيم التي صانت لهم قدرة التثاقف مع مجموع العرب المسلمين القادمين سواء من شبه الجزيرة العربية

(75) لنذكر الحكم الشرعي، في خطوطه العامة، كما حدده الفقهاء : هل ثمة مقاومة دون عرض استسلام، فان السكان واموالهم يؤلفون بعد الهزيمة الفيء فتصبح الأرض عندئذ ملكاً لا يتجزأ للأمة الاسلامية، وهذا ما حدث في العراق الذي انتزع عنوة من مملكة الفرس الساسانيين . وقد توزع الارض على العكس، بين الغزاة العرب المسلمين الذين يصبحون مالكيها لقاء دفع ضريبة العشر في حين يثابرون على استغلالها . وإذا ما كان ثمة، على العكس، استسلام دون مقاومة « كما حدث في حمص » أو حدثت مقاومة أعقبها تسليم « كما جرى في دمشق » طبق على مالكي الأرض قانون الذمة بين فيحتفظ هؤلاء المحميون بحكم هذا القانون بأموالهم وحرية العبادة مع بعض تحديدات. إن هذه الواقعة مضافاً إليها منظور عدم دفع الجزية « عند فصل هذه عن الضريبة العقارية » تحمل الذمي، بصورة طبيعية، على اعتناق الاسلام .

أو من السهوب المتاخمة، وبما ان هؤلاء العرب أبناء الصحراء، ظلوا أقلية بالنسبة لجماهير الحضريين والمدنيين فقد كان ممكنا أن يتم سير التثاقف باندماج العرب المسلمين في الأمم المغلوبة اندماجاً ثقافياً متفاوتاً في كماله، ولكن ذلك لم يحدث، فان أقلية الفاتحين حملوا، على التركز كي يسهل عليهم الدفاع عن أنفسهم، او تثبيت دعائم سلطانهم، وقد حالت العناصر المكوّنة للعقلية البدوية، وروح العصبية القبلية، ونوع من العرقية ذات الأثر الذي لا ينكر، حالت دون اندماج الفاتحين ثقافياً في المغلوبين كما أن تأسيس المدن الحصارية (الاستراتيجية) كالبصرة والكوفة اللّتين نزلت بهما في بداية الفتح، القطعات البدوية، كوّنت حصوناً لمقاومة الدمج الثقافي . وفي مكان آخر من الشام، كانت اقامة فرق المستعربة حاجزاً للتثاقف الكلي للفاتحين الأول مع المغلوبين، وأخيرا كانت طبقة الارستقراطية العسكرية المزودة بالمال والممتلكات، نزاعة الى الوقوف في معزل عن تسلل غير العرب الى صفوفها، حماية لامتيازاتها ، وكاد التكافل بين العرب المسلمين وغير العرب ان يكون نتيجة حتمية للفتح، وكان ممكنا ان نحصر، من خلال الأجيال التي كانت أعمارها تتراوح بين عشر وثلاثين سنة عند بدء الفتح سنة **634** م ، والتي ، بالمقابل، بلغت أعمارها حوالي الأربعين أو الستين سنة عند ظهور الأمويين سنة **661** م كان ممكنا أن نحصر المظهر الممهد لهذا التكافل والتثاقف المصاحب .

وقد خضع هذا التثاقف ، الذي نجهل تفاصيله، لثلاثة اتجاهات :

1) على الصعيد الانساني : تداخل تطورات العرب المسلمين البطيئة، انطلاقاً من بدويتهم .

2) أثر الارستقراطية العربية وجماعات المستعربة في الدولة الاسلامية .

3) دخول غير العرب في الاسلام باعداد متزايدة .

واحتفظت ، على الصعيد اللغوي، في العهد الذي يهمنا، لغات الحضارة (الآرامية، والفهلويّة، واليونانية والقبطية) بنفوذها واستعمالها في الادارة، وهي لعمري ظاهرة أساسية، في حين أن الغالبين لم يتعلموا تلك اللغات بل احتفظوا على

العكس، بالعربية التي اضمحلت لهجاتها أمام لغة القرآن . اما غير العرب، كائنا ما كان وضعهم الشرعي، فتعلموا لغة أسيادهم، ورزق بعض الأسرى — الذين اسلموا فيما بعد وأعتقوا — ذرية زاولوا هذه اللغة باناقة مدهشة .

انها لظاهرة أساسية في صيرورة حضارة في دور التكوين، فقد جرى تثاقف الغالبين لا بالاستعارة من لغة المغلوبين بوصفهم مثقفين (بكسر القاف) بل جرى التثاقف بلغة الغالبين الذين افادوا من عملية التثاقف . وتكفي هذه الظاهرة — الاساسية في حد ذاتها — لتعيين اتجاه المسار وتنتهي بأن تبلغ مغزاها، هذا إذا علمنا أن أداة التثاقف اللغوية هي اللغة العربية التي اختارها الله لنقل رسالته الأخيرة الى الناس . ونحن هنا ايضاً تجاه الظاهرة القرآنية، وان العرب المسلمين القادمين من الجزيرة هم حملة إيمان نضالي ينتشر بين الأقرب فالأقرب، وهم لم يعتنقوا ديانات السكان المغلوبين بل أدمجت هذه في اطار يجدر تعريفه؛ فان مسيحية العرب المستعربة، الرقيقة، كقاعدة عامة، توارت متخلية عن مكانها لإسلام فتي، في حين بدأ التفكك البطيء عند بقية الطوائف الأكثر مقاومة، وهكذا جرت ، منذ البدء، عملية تثاقف أسياد الشرق الأدنى الجدد، مع جميع النتائج التي تستدعيها، تحت شعار العروبة والاسلام الخالدين . ان لكل من هذين الشعارين أثراً في اتجاه مختلف وتكميلي، فقد ظهر الأول بوصفه عنصراً محافظاً غير مؤات للتثاقف، وكان الثاني، على العكس، من جراء القضايا التي يطرحها أمام الوجدان الفردي والجماعي، عاملاً قوياً للتقارب من ثقافة غير العرب، وفي هذا المعنى تكتسب دراسة الوقائع الأدبية في الدور الذي يمتد حتى حوالي سنة 50 هـ 670 م، أهمية خاصة، فهي تتيح لنا بأن نستحضر، الى حد ما، المناخ الفكري الذي تحرك فيه العالم العربي الاسلامي قبل الاختلاط العرقي، وكذلك تسارع سير التثاقف الذي سيقتلعه من جذوره .